من شباك بيتنا

اســــم الكتـــــاب: مـــــن شـــــباك بيتنـــــا

التــأليـــــــــــف: إيـــــــــمان الوكيـــــــــل

مراجعة وإخــراج فنـي: سالم عبد المعز سـواح (عمـرو سـواح)

رقـــــم الإيـــــداع: 2021 / 28232

الترقـــيم الـــدولي: 7-275-835-977-978

النـــــــــــاشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر

Facebook

Email za7ma.kotab@gmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

من شباك بيتنا

الكاتب

إيمان الوكيل

الإهداء

إلى أيامي الجميلة

وخالص العزاء والاحترام

إلى كل فوزي ركس في حياتنا

فهرس

هجرة فوزي ركس

هجرة فوزي ركس

دهاليز ســراديب، أقبية، مخازن ضــخمة، أنهار جارية لا تتوقف، ينابيع لا تنضب يمتلكها هذا الشقي المسمى بالعقل الباطن، العجيب في الأمر هو طريقة اختياره للذكرى المناســبة لحياتنا اليومية، لا تعرف في أيّ مكانٍ فيها سوف يخبئك، ولا في أيّ واحدٍ منها سيُغرقك، نعتقد أنه اختيار عشوائي، والواقع أنه سر لا يبوح به لأحد.

لاحت ابتسامة حب وإجلال لذكرى (عمو) فوزي ركس!

سمعتني أسأل عقلي الممتلئ بالضجيج:

- أي شــيطاني العجيب؛ من أين أتيت بذكرى ذلك الرجل؟ ولماذا هو وليس غيره؟

أجابني:

- إنه المطر الغزير، وهو أمر غير اعتيادي في الســويس؛ قد يمر العام وتمطر مرة أو اثنتين؛ بكثافةٍ بســيطة، أو دون مطر نهائيًّا، عكس المنصورة؛ سماؤها دَيمَة دائمة، وربما ما رأيته من مشاهد ظلم مؤلمة طوال النهار، ثم في التلفاز ليلًا بنشرة الأخبار.

لم أقتنع بإجابته، لا بد أنه حديثي مع صديقةٍ عن فلسفة الهجرة وأنواعها، يحسب الكثيرون ومنهم صديقتي أن الهجرة مكانية فقط؛ مثل هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

قلت لها:

- إنما الهجرة بالنفس والقلب إلى حيث تريد الحياة وما نتمناه؛ من حبٍّ أو مالٍ أو منصـــب، يتجســـد حلمنا أمام أعيننا دائمًا عكازًا نتوكأ عليه للمرور من ضـــيق الحياة الحالية إلى رحابة الأماني، يحوِّل خشـن الظروف لشـيء محتمل، يُمكّننا من التحمل لتحقيق ما هاجرنا من أجله، الهجرة دومًا سعي وراء حلم، يعطينا الطاقة للعمل وبذل الجهد لتحقيقه.

سألتني وهي تمصمص شفتيها متعجبة من كلامي:

- والكابوس؟

- الكابوس كجزرة علقت أمام عيني حصـــان جائع يجري في سباق، يهاجر لحلمه للاستمتاع بأكلها، لو هجرها لمات من الجوع كما يعتقد، لكنه مهما أسرع تسبقه الجزرة دائمًا ولا ينولها.

ما إن نطق لســـاني بمعنى هجرة النفس حتى انهمرت أمطار الذكريات على فؤادي.

أعاني نســـبيًا مما يســـمى بالذاكرة المفرطة، يا لها من معاناة أن تتذكر أحداثًا من سـنّ مبكرة، تعيش آلامها وتسـترجع مرارها مرارًا وتكرارًا، وقد تجتمع عليك مع آلامٍ أخرى تشـــبهها، وتســـير الأمور للأســـوأ؛ متحدة مع هرم عمري النفســـي، أهبط غريقة في أعماقها، لكني أسعد بطفو الفهم الأعمق للمواقف وتفسيرها.

عقلي الباطن يعمل بشـــكل آلي خبيث، وإن تميزت بهذه الصـــفة السيئة في مواقف بسيطة، من استيعاب للمواقف والشخصيات ووفرة رصـــيد الحكايات، لكنه المنغص لحالتي النفســـية دائمًا، يجبرني على الهجرة إلى ذكرياتـه المخزنـة، أختنق بـه؛ ولا أملـك مفـاتحـه، ليس بمقدوري أن آمره بالعمل أو أوقفه.

يغلبني ذلك الحزن غير المبرر، وهو في الوقت نفســـه مقبولٌ جدًا لنفســـي الباكية على أوقات ســـعيدة مضـــت ولن تعود؛ وغاضـــبة؛ من ضياع أو تبدد وربما تلف أو هجرة أحلام جميلة لم تتحقق.

❖ ❖ ❖

دكتور جورج

اضطر الجيران للاستعانة بقابلة للمساعدة، لكنها فشلتْ في إخراجي لنور الحياة وإنهاء عذاب أمي من ولادةٍ متعسرة، لعدم وجود مواصلات اضطر جدي للمشي خمسة عشر كيلو مترًا، من منطقة الملاحة حيث سكنه، لإحضار الطبيب جورج من مساكن مدينة السماد، لتوليد أمي، تأخرا كثيرًا، مشيا من بين دبابات الجيش المصري المختبئة من طيران العدو أسفل الشرفات، وحول البناية، حضرا أخيرًا في المساء، دلفا من الباب الرئيسي.

الكهرباء مقطوعة عن المدينة، وزجاج النوافذ مطليّ باللون الأزرق، لمنع تسرب الضوء للخارج، فلا تستدل الطائرات المعادية لأهداف تقصفها.

اجتهد الطبيب على ضوء الشموع لوقتٍ طويلٍ لإخراجي وكأني من البدايات ملتصقة بماضيّ، خائفة من الخروج لمستقبلٍ مخيف، ينتظرها عالم مزدحم بالحرب مخضب بالدم، أجبرني على الخروج، خلعني من رحم أمي، بصوتٍ يضاهي فسخ خشب ملتصق، غضبت من آلة السحب؛ أحدثتْ جروحًا بوجهي وجبهتي، عنيدة أنا.. أبيتُ الحياة؛ كتمتُ أنفاسي، ضربني، عذبني بوضعي في ماءٍ ساخنٍ يليه ماء بارد، طال ألمي، تنازلت عن كبريائي؛ صرخت وبكيت، رغمًا عني دخلت أنفاسي إلى صدري وخرجت، تعجبتُ لسعادتهم الغامرة، اغتظت؛ صرخت أكثر.

❖ ❖ ❖

نشرات الأخبار

في اليوم التالي؛ حملني أبي وجلس في الشرفة، استمع لنشرة أخبارٍ على موجة إذاعية أجنبية، بعد اكتشاف كذب الإعلام المصري، تغذيت مع لبن أمي على سماع النشرات الإخبارية وقراءة الجرائد والشغف بمعرفة أحوال العالم، تتوقف حياتي مع ثورةٍ هُنا، يصيبني الأرق لانفجارٍ هناك، يتملكني الفزع لانفجار بركان هنالك، أو لفيضان يغرقني حتى لو في بلاد السند، حمَّل الجميع أبي مصيبة تنشئتي متفاعلة مع أحداث العالم ومآسي البشرية، والحقيقة أنه جينٌ وراثي ورثته منه.

❖ ❖ ❖

جيش الجزائر

فزعوا لصوت طيران قريب؛ اعتقدوا بالموت المحقق؛ نطقوا الشهادتين، صرختْ جدتي، احتوت خالَتَيّ الصغيرتين، اندفع أبي من مجلسه ليحميني بالداخل، باتفاق غير منطوق لم يتوجه أحد للمخابئ القريبة تعاطفًا مع الوالدة التي لا تستطيع الخروج، ارتج المكان، انفجارات متتالية صمت آذانهم، أتى العدو كالجراد على زهور الكتيبة، قصف طيرانهم كتيبة جيش الجزائر المتمركزة على بُعد خمسة كيلو مترات.

❖ ❖ ❖

(وش) النكسة

مازحني أخوالي وخالاتي كثيرًا بأحداث يوم مولدي:

- أنتِ (وش نكسة).

أجبتهم بتحدٍّ:

- ولدت بعدها.

- قطعتِ النور عن السويس كلها.

أغمضت عيني كالهائمين عشقًا:

- لأني أحب الشموع.

أعلوا قوة تحديهم لدموعي:

- قتلتِ كتيبة جيش الجزائر كلها.

دون رفض لكلمة (قتلتِ)، أجبت:

- حظهم جميل، يا لِحَظِّهم؛ ماتوا شهداء.

تنبأ لي خالي الأصغر الأحب إلى قلبي المهندس العبقري وبطل الشطرنج والرسام، بشخصية قوية، ثورية، ولسان طويل.

❖ ❖ ❖

احتجاج

بعد مولدي بأيام، هاجر أهل مدن القناة مضـــطرين، لاشـــتداد القصــف اليومي، والانهيار الكامل لمســاكنهم وبيوتهم، دفن أســفلها الكثير من الشهداء، قصفوا مصانع البترول، اشتعلت منطقة الزيتية، تعالت النيران لثلاثة أيام، تلونت سماء الســـويس بلون الجحيم المستعر، تلاه سواد دخان خانق حزين حجب السماء.

كاد شـــبح الموت أن يأكل أبي في أثناء غارة جوية، قُذِفت القنابل على رؤوس أهل الســويس، ارتدت إحداها مصــطدمة بســقف ســيارة تابعة للشئون الصحية يستقلها أبي لقضاء مأمورية، انفجرت بعيداً أمامهم في الشارع الخالي، للآن تتجدد دهشة أبي كلما تذكر مردداً:

- سبحان الله، ما هي إلا أعمار مكتوبة.

دخل أبي لمديره، طلب الموافقة له على النقل وإلا ســـينقطع عن العمل، اضطر مديره للموافقة إكراماً لطفلته المولودة؛ أنا.

❖ ❖ ❖

التغريبة الأولى

اختار أبي أن يكون تهجيرنا الإجباري إلى مدينة المنصورة عاصمة محافظة الدقهلية، تقطن عائلته بإحدى قراها، سـبقه جدي حتى لا يفارق ابنته الكبرى (أمي) والمتزوجة الوحيدة في بناته، تبعه أبي بعد أن طالت حرب الاستنزاف، وأصبحت السويس شبه خالية تمامًا إلا من المقاومة الشـعبية وأطقم الأطباء والتمريض، ودّع المُهَاجرون بلادهم باكين، محترقين بنار فراق الأهل والأحبة، أرضـهم، بيوتهم، اسـتقلوا القطار أو سـيارات النقل إلى مجهولٍ يخشـونه، وأناس غير أناسهم، غُربة لا يعرف مرارها إلا من ذاقها.

قصف العدو كثيراً من السيارات الخارجة من السويس؛ حصدهم متراصـّين على الطريق خلف بعضـهم، اضـطروا للسـفر في غبشـة الفجر أو وقت المغرب لصعوبة الرؤية للطيران وقتها.

استقلت أمي ونسوة أسرتها القطار، استقل أبي سيارة النقل تاركًا كل الزجاج الخاص بالسـفرة وغرفة النوم مسـتندًا إلى حائط لعدم وجود مكان بالشـاحنة، انطلقت مني صـيحة دهشـة بعد سـنين عند عودتنا أن وجدناه كله سليمًا؛ دون خدش، رغم تحطم النوافذ.

انهمرت دموع أمي كلما شـاهدت نشـرة أخبار السـادسـة والتاسـعة على القناة الأولى في التلفاز ورأت صـور البيوت الخربة إثر الدانات والقنابل، لصـغر سـني، وعدم وجود ذكريات لي في السـويس، لم أقدر

ألمها حق قدره وقتها، لكني تجرعتها عند مفارقة خالاتي وصـديقاتي عند العودة إلى السـويس، بكت أمي فرحًا بالعودة، وأنا أبكي حزنًا للفراق، ظللت لسنوات، أعيش بجسدي في السويس مهاجرة بروحي إلى المنصورة، أعيش بذكريات اللهو واللعب في جنبات بيت جدتي مع خالاتي، والشارع مع صديقاتي، وأبناء العم في طهواي.

هنا تبدلت الكراسي بين أبي وأمي؛ كان أبي يحيا بالسويس بينما روحه مهاجرة حيث قريته؛ وها قد عاد لها، أما أمي ككل المهاجرين، تركت روحها أمانة لدى السـويس، تحوم حولها كل يوم تبلغها بكم الدمار من طائرات العدو، تنعي لها الشـهداء الأبطال، وتعود حزينة حيث الجرحى والدماء.

❖ ❖ ❖

هيبة الميري

ازدحمت المساكن بمهاجري مدن القناة، لم يجد أبي سكنًا مناسبًا، ظن كما الجميع أن مدة الحرب شـهور مثل العدوان الثلاثي ١٩٥٦؛ وافق على سكن في منطقة شعبية، كان أبي وأمي الموظفين الوحيدين في المنطقة كلها وليس حارة عبد الجابر فقط؛ وقت أن كان للموظف الحكومي هيبة، محسود ممن حوله على (الميري).

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

غسيل و"مكوه"

كانت الإجازة الأسبوعية للعاملين في الدولة والمدارس يوم الجمعة فقط، ليتحول يوم الخميس في حياة المرأة العاملة ليوم مشهود، فبدلًا من التنزه خُصّص للغسيل والتنظيف.

تأتي "سوريا" بعد الغداء مباشرة؛ تضخ الجاز لفونية الوابور من مضخة جانبية، تنتشر رائحة الجاز معطية الإذن ببداية الجهاد الأسبوعي، تلقي عليه عود الثقاب المشتعل؛ يعلو اللهب ثم ينتظم في ضجيج كريه، تعجبت أنه محبب للبعض.

مُنِع عني وأخوتي الاقتراب من الطرقة أمام الحمام، حيث تعلو (البستلة) حمالة الوابور ذات الأربع قوائم، تضع سوريا الماء والصودا الكاوية (البوتاس) ومسحوق الغسيل (سافو) أو (رابسو) مع صابون مبشور بمبشرة مخصصة في البداية؛ في (البستلة)، تقلبه بعصا مخصصة، بعد غلي الماء تضع الملابس والملاءات البيضاء المنقوعة منذ الأمس بعد عصرها، تُقلب من آنٍ لآخر.

بعد إتمام عملية الغلي يُفرك ببعضه يدويًا في إناء من الألومنيوم أو النحاس واسع مستدير يسمى (طشت) مرةً بعد الأخرى بعد تغيير ماء الغسيل والشطف بالماء يوضع قليل من مادة زرقاء اللون تسمى (زهرة) في ماء قليل ويعاد شطف الغسيل الأبيض فيها لتكسبه لونًا أبيضَ ناصعًا ثم العصر وأخيرًا النشر في الشرفة، ثم تبدأ غسل الملابس الملونة مرة ثم الأخرى بعد تغيير الماء دون غلي.

تعاملت النسوة آنذاك مع عملية النشر بنظامٍ خاصٍّ لا يصح تغييره، على الحبال الأمامية تُنشر الملابس الداخلية الرجالي المخاطة من قماش البفتة البيضاء، لم نعرف وقتها ملابس داخلية ملونة، يليها الفانلات الداخلية القطنية البيضاء أيضًا، ثم المناشف والملاءات البيضاء، ثم الملابس الملونة، سألتُ سوريا:

- لماذا الأبيض أولًا وليس الألوان؟ أُفَضِّل الألوان.

شهقت وخبطت بكفها على صدرها:

- لأجل الجيران (تجرسنا) ويقولون "يخفون غسيلهم لأنه مُصفر غير نظيف".

يلي الغسيل مسح وتنفيض الشقة كلها.

في اليوم التالي؛ الجمعة، يوم كي الملابس، وهي مهمة يتولاها أبي.

يعلو ضجيج الوابور ثانية، يوضع فوقه المكواة الحديدية، بجواره كوب الماء يضع منه أبي في فمه ثم يبخه على الملابس ثم يفردها بالمكواة الساخنة، ولا أستوعب حتى الآن كيف كان يضبط حرارتها دون مؤشر ولا يحرق الملابس.

أرقب أبي يكوي مريلتي المدرسية ثم قمصانه ثم أثواب أمي بعنايةٍ تامة، أما بذلاته الشتوية من حظ المكوجي.

ومع سيرة النظافة هذه لا يمكن أن أنسى استحمامي وأختي اليومي صيفا، ونصف الأسبوعي شتاء فكانت من مهمات أبي مثل مذاكرة الدروس وحل الواجبات.

❖ ❖ ❖

حرامي الأطفال

لم أكن قد تخطيت الســـنة الثالثة بعد، خرجتْ عمتي واطفة من طهواي -لأول مرة- للعلاج في المنصــــورة من آلام بعظـامهـا، وهي الأشــهر في العائلة بتصــنيع وحب الفســيخ والْمِشّ وأي مملح يُؤكل، طلبتْ من أمي أكلة فسـيخ من محل يبعد عن بيتنا، بمنطقة تسـمى ميت حضـر، نزلتْ أمي مشـددة على عمتي بغلق الباب، بكيتُ؛ سمحتْ لي عمتي بـالنزول لألحق بـأمي كمـا اعتـدت بـالقريـة، مـا أذكره أني ســألت إحدى الجارات عن جهة ســير أمي، ســرتُ حيث أشــارت، لم أجدها، طال السير، عدت للبكاء يليه نواح، لا أذكر شكل الرجل الذي حملني وجاب بي على باعة الفســيخ، للبحث عن ما نطقته بوضــوح (ماما أبلة آمال من السويس تشتري فسيخ لعمتو).

أتذكر دعوات النســـوة وتربيتهن على الطفلة الباكية، أول تعارف بيني وبين الخوف، ميزتُ شعر أمي وثوبها القصير من الخلف وسط نسوة يرتدين أربطة الرأس(قرطة) وجلاليب، تملصت ممن يحملني، ناديت ماما، أنزلني؛ عانقت سـاقيها، التفتت متعجبة للمسـة وصـوت تعرفه جيدًا؛ صــرخت، انتابها الدوار كادت تســقط مغشــيًا عليها، ســاندتها النســوة وما زلت ممســكة بها، شــربت ماء، لامها الرجل الطيب لتركي بمفردي، لم أفهم لماذا بكت وضربتني!

صـــادرت أمي الحلق الذهبي والأســـورة الصـــغيرة من يدي، خاصمتني، أصيبت بارتفاع ضغط الدم والصداع النصفي لأيام.

أفاض أبي في تخويفي من ســـارقي الأطفال ســـاردًا الحقيقي والأســـاطير عن كيفية خطفهم وقتلهم أو لربما قطعوا أيديهم أو أرجلهم للعمل في التسـول، بكيت خوفًا ثانية، خوفا ألا أرى أبي ثانية، شـرح لعمتي بهدوء شـديد لكي لا تشـعر بالحرج، الفرق بين المنصـورة وطهواي، تبعها كوابيس لســنوات؛ بحرامي الأطفال؛ جســد لإنســان برأس حيوان غريب، حاول اختطافي مرارًا.

❖ ❖ ❖

محاولة اختطاف

انتهيتُ من امتحانات الصف الثالث الابتدائي الصورية، كان الانتقال تلقائيًا للصفوف الأولى والثالثة والخامسة، دون رسوب، اتفقت مع بعض الصديقات ممن تسكن بجوار المدرسة على اللعب بفناء المدرسة الخالي في أثناء مراقبة أمي للجان الصف الرابع.

فوجئنا بسيدة مرتدية جلبابًا أسودَ من حرير، وطرحة فوق القرطة (بالأوية) ــ وهى كريات ملونة من الخيوط تزين غطاء الرأس ــ تقف عند الباب الخلفي للمدرسة؛ جميلة بيضاء، طويلة؛ تشبه عماتي، نادتني، خطوت بضع خطوات باتجاهها، ارتعبت، صدمني خبث عينيها، تسمرت خوفًا، هربت صديقاتي، أردت الصراخ، لم يخرج صوتي، ضجرت لعدم استجابتي، أخرجت عصا صغيرة من أسفل جلبابها، ازداد هلعي؛ تحركت ساقي أخيرًا، واختفت البيضاء، ارتعدت وبكيت لنصف ساعة، انتظر من يأخذ بيدي لأمي، من نافذةٍ في الأعلى رأتني زميلة أمي، أرسلت من يصحبني لها.

بعد ساعة سمعنا صراخ رجل في الخارج، اندفعنا للنوافذ، رأيناهم يضربون الخاطفة بعد فشلها الثاني في خطف طفلة، سقط عنها شعرها المستعار وغطاء الرأس، اتضح أنه سارق فاشل جميل الشكل؛ هدم أسطورة أحلامي بالسارق ذي الرأس الحيواني.

في شبابي حكيت لأمي ما أذكره من حادثة الفسيخ، ضحكت حتى أدمعت، أخبرتني أنها المرة الثانية لفقداني وليست الأولى.

❖ ❖ ❖

الاختفاء الأول

بعد ولادتي بأيام، ذات ليلة حارة من شهر يوليو، اشتد القصف واقترب من سكن عائلتي، خرج الجميع بملابس النوم، بعضهم حفاة، ارتدت أمي "روب" على عجالة، حملتني وسبقت أبي الذي انشغل في غلق الغاز والبحث عن المفاتيح، الشوارع مليئة بماء الصرف إثر قصف البنية الأساسية، لم تعتَدْ أمي بعد على السير حاملة سيادتي، حملني عنها أحد شباب المقاومة الشعبية، لتتمكن من المرور فوق سقالات خشبية، ساعدها هي ومن خلفها من نسوة لدخول المخبأ، طال انتظارها لعودتي، انتهت الغارة، وامتد البحث بين المخابئ في المنطقة، تلاقيا بعد انهيار أمي لساعتين، نسي الشاب شكل أمي، وأي مخبأ دخلته.

❖ ❖ ❖

عبد الناصر وَجَدِّي

تعجبتِ العائلة لتذكري يوم اشـــترى أبى التلفاز، لم أكن قد أتممت السـنة الثالثة بعد، سـبقه يوم وفاة الرئيس جمال عبد الناصـر، لبسـت النسوة السواد، علا الصراخ من النوافذ، بكى الرجال في الشوارع، تحول البلد إلى مأتم كبير، حداد شعبي عام، والقرآن يُتلى في المحلات والشوارع.

لحق به جدي فجأة؛ في يومٍ وليلة، رأيته نائمًا لا يشـــعر بيد الطبيب توخزه بإبرة في قدمه، شـــد جفنه، قرب شـعلة قداحة من عينه، لم يعبأ أحدهم بصرختي المحذرة من اشتعال رموشه، خرجت من حلقه حشرجة مخيفة، هز الطبيب رأسه، مط شفتيه، أغلق حقيبته وخرج مسرعًا خلفه خالي الأكبر، علت نهنهة أمي وخالاتي، سقطت جدتي مغشيًا عليها، ماذا يحدث؟! إنه نائم.

رحل جدي الطيب الحنون، أكبر من حولي سنًّا، تخيلت الله في السماء على صورته، ولسنوات أرى طيفه في السماء كلما أمطرت كيوم وفاته، لا أدري إن كان حلمًا أم خيالًا، هو في الأعلى، ولم لا؛ أمي من قالت إنه في الجنة؛ أليست الجنة في السماء؟!

دفنوه في مقابر الجيران، صـورة حقيقية لتلاحم الشـعب ومسـاندته للمهاجرين في مصابهم، لكن البعض اتهمهم بالتسبب في ارتفاع الأسعار، قائلين:

- (غليتوا علينا الْمِش) أي تســـببتم في الغلاء حتى ثمن المش؛ كنوع من الإذلال، نـال الغضـــب من أمي وجدتي كلمـا سمعتـا تلـك الجملـة البغيضة.

❖ ❖ ❖

جدتي

عانت جدتي كثيرًا بعد وفاة جدي، وهي المدللة منذ طفولتها ولأول مرة ذهبت للسوق لشراء الخضار ولوازم الحياة، تولت تربية وتعليم سبعة من الأبناء بمعاش متواضع، ومساعدة من خالي الأكبر وأمي اللذين تخرجا قبل رحيل الأب.

عاشت مُهاجرة لِيُتِمّ الأبناء الصغار تعليمهم، تخرّج السبعة، خالان في كلية الهندسة وخالة في دار العلوم واثنان في كلية التجارة واثنان معهد متوسط، حلمت، جاهدت، حققت، أراها معجزة من الله.

أشتاقها بقوة، أرى طيفها جالسًا على الكنبة البلدي، أسفل جهاز المذياع الضخم المعلق وسط الصالة الكبيرة، تستمع لإذاعة القرآن الكريم، تردد الأدعية مع المذيع.

سمعتها تناجي ربها، تشكو إليه أيامها الصعبة والحمل الثقيل الملقى على كاهلها، تعلمتُ منها مناجاة الله فيما يؤلمني، رحمة الله عليها.

❖ ❖ ❖

عود الفل

الخروج من الحارة يعني المرح؛ أتنفس بينما أسير ممسكة بيد أبي، فلا رائحة روث، أو صـــراخ أطفال وتطاحن النســـوة، احتلّ عشـــق المنصـــورة قلبي، رائحة الزهور والفل من حدائقها بطول شـــارع المحافظة، الكافيتريات المطلة على النيل، كانت تسـمى (كازينو) أحبها لقلبي كازينو الشجرة، أشجاره مزينة بمصابيح ملونة مبهجة، أشرب العصــير وألهو، أتامل النيل، ولا بد من شــراء الفل المثبت على عود خشبي، أستنشق عبيره طول طريق العودة، أكاد أشفطه لداخل أنفي؛ مع أول خطوة داخل الحارة، أتلهف للنزهة القادمة على جمر الانتظار.

أنتظر موعد زفة رؤية هلال شـــعبان، والاحتفال بالمولد النبوي، أركب المراجيح مع أختي، نشــتري الطراطير اللامعة الملونة والطبلة، والأراجوز الذي يصــفق إن ضــغطت على جذعه، ثم نشــاهد الزفة، أولها موســيقى الشــرطة ثم الجماعات الصــوفية يتقدمها علم كل جماعة ثم شـيخها على حصـانه، أحدهم ركب حصـانًا أبيضَ جميلًا، غضـبت لاتسـاخه، يختلفان عن حصـانيّ فوزي ركس النظيفين، تختم بالرفاعية وهم مجموعات من الحواة يحملون حيات وثعابين، غرسـوا أسـياخًا رفيعة في لحم أكتافهم وظهورهم، جزعت لمظهرهم ثم اعتدته على مضض، بسؤال دائم التردد في نفسي: "ولمَ العذاب؟"

❖ ❖ ❖

قرشان صاغ

تميزت حياتنا بالبســاطة والســهولة، أب لا يزور أو يتزاور إلا مع ندرة من المحترمين زملاء العمل، لا يهوى الجلوس على المقاهي، لا يدخن، حياته بين العمل والبيت، يعود للبيت في الثانية والنصــف ظهرًا؛ لا يخرج إلا صباح اليوم التالي للعمل.

أم متعلمة، أجادت الطهي وصنع الحلوى، وتفصيل ملابسنا، كثيرا ما ســـُئلنا ممن حولنا: "من الخياط الماهر الذي خاط لنا ثيابنا؟"، أذكر أن أمي أهدت كثيراتٍ من بنات عماتي ملابس عرسهن.

أحوالنا متيسرة رغم أن دخل أبي وأمي لم يتجاوز السبعين جنيها، بالإضـــافة إلى دخلٍ بســـيطٍ من قطعة أرض صـــغيرة ميراث أبي يستلمه كل موسم على استحياء، مصروفي قرشان صاغ يوميًا، أشتري بهما شـوكولاتة وملبّسًا، أو بسكويت كورونا وزجاجة (سـباتس) وهي أجمل من مشروب (سفن أب) الحالي.

❖ ❖ ❖

الثلاجة في بيتنا

حرص أبي على إضافة الكماليات لحياتنا مثل الأجهزة الكهربائية الحديثة آنذاك، أتذكر أن عمي جاء خصيصى للمباركة، لشراء أبي ثلاجة إيديال مصرية ٦ قدم، الأولى في الحارة، وغسالة من المصانع الحربية، كنا من المحظوظين أن وصلتا بعد أربعة أشهر فقط من الحجز.

رغم الحرب كان لمصر مصانع حربية مثل أطلس لصناعة (البوتاجاز).

واجهنا المعاناة من امتلاك ثلاجة في فترة قبيل الإفطار في رمضان، يدق الباب كل دقيقة، أفتح لطفل من أبناء الجيران، يحمل دورقًا مملوءًا بالعصير لتبريده قبل الإفطار، ثم العودة لأخذه.

خَبِرت اختلاف الحيوات والثقافات والعادات، بين ما أشاهده بالتلفاز، وما أحياه وأسرتي وبيت جدي، وحياة ثالثة لسكان الحارة، والرابعة لأهل قريتنا حيث لا كهرباء أو صنابير ماء، للكل طريقته الخاصة في حياته، لا أعيب عليها، ولا أتبعها.

❖ ❖ ❖

سوق العيد

الشونة مكان لتخزين أجولة القطن التابعة لمحلج القطن القريب، وقت أن كان لمصر بورصة للقطن، يحكون أن أجولة القطن كانت تملأها، في صغري رأيت الأجولة تغطي ثلثها فقط، مساحتها مثل ملعبي كرة، فصلت بين حارة عبد الجابر وقسم ثاني المنصورة، رغم ذلك لم أرَ عسكريًا أو ضابطًا في أيّ عراكٍ نشأ في الحارة؛ وكأنها محميةٌ خاصة بأهلها.

تتحول الشونة إلى (سوق العيد) في الأعياد والمواسم، تبلغ سعادتي عنان السماء مع أول رمضان، تتجمع أنواع المراجيح، وبائعو اللعب والبالونات، والحمص والحلويات في المولد النبوي، يبدأ مهرجان المتعة في اليوم الأخير من شعبان، نخرج لنشتري الفانوس الزجاجي الملون، والشمع الملون لإضاءة الفانوس، و"ياميش" رمضان، نجد صعوبة شديدة في الحصول على بعض أنواع المكسرات، وأحيانًا لا نجدها وقت حرب الاستنزاف، ونعود لتجربة كل أرجوحة على حدة، لأختار التي سأستقلها يوميًا بناءً على عدم إصدارها أصوات (تزييق).

ارتاد وأبي الشونة يوميًا بعد فوازير سمير غانم وجورج، لمتعة التأرجح التي لا تساويها أخرى في نفسي، أحمل الفانوس بداخله الشمعة الملونة مشتعلة، مربوط في يد الفانوس سلك طويل تبعد الحرار عن أصابع يدي الصغيرة، نعود لشرب العصائر وأكل الحلوى الشرقية من يد أمي، لا أنسى أول محاولة لصيام يومٍ كامل، أوشكت على الإغماء قبل الإفطار بدقائق.

حارة عبد الجابر

كان للحارة طابعٌ ورائحة مميزتان، في مدخلها تشتم رائحة روث الحمير والأحصنة الخاصة بعربات الكارو المنتشرة بالمنطقة ويعد النقل بالكارو هو الناقل الرسمي للمنطقة والمناطق المحيطة؛ ترى الجهل عيانًا جليًّا، في الذباب المنتشر، وفي تعاملهم اليومي الاجتماعي والصحي، قيادة عربات الكارو المهنة الأساسية لسكان الحارة؛ اعتاد العربجية الخروج صباحًا والعودة بعد المغرب؛ حسبتهم يوقّعون في دفتر التوقيع، في مكتب خاص بهم مثلما يوقع أبي وأمي في عملهما! سألت نفسي: "لماذا لا يعودون في الثانية ظهرًا مثل أبي؟!"

❖ ❖ ❖

مضرب الأرز

راقبتُ الجزء الظاهر من مضرب الأرز الواقع خلف الشونة من نافذة الصالة، التل الأصفر من القش المغطي لحبات الأرز لحمايته من العصافير واليمام والطيور الأخرى، أبلّغ أبي بيوميات التل زاد أم نقص، كما أبلغه بمرض حصان فوزي ركس أو استحمامه وتغيير حدْوَته.

المضرب مصدر رزق لكثير من العربجية، شكا الجميع صوت صفيره؛ وأحببته.

❖ ❖ ❖

البطانية الحمراء

تنوعت المستويات المادية لعربجية المنطقة، منهم من عانى الفقر الشديد، كمن سكنوا بيتًا طينيًا في أول الحارة، مكونًا من غرفتين، احتل الحصانان إحديهما، وتراصت الأسرة كلها على أرضية في الغرفة الثانية.

لم تجد ابنتهما الكبرى "عطيات" وطفلتاها مكانًا للنوم إلا أمام باب المنزل من الخارج، بعدما قتل الزوج روحها بسيف الطلاق، خانت عهد إنجاب الذكر، وأتت له بأنثى، غفر لها، لكن كرامته كذكر مكتمل؛ لا يعيبه ما يعيب الذكور، لم تطِق جرأتها بالخيانة للمرة الثانية، افترشت مشمعًا رديئًا علاه سجادة بالية، فوقها (بطانية) ثقيلة ناعمة سخية؛ مزركشة بالورود، ابتاعتها من أحد تجار الشنطة الذين نشطت تجارتهم بين مصر وليبيا آنذاك، وعملت من أجلها لشهور طويلة في الخدمة في بيوت علِية قوم مدينة المنصورة، ممن يسكنون شارع (توريل) أو شارع المحافظة، بل وحملت الأجولة في مضرب الأرز الواقع خلف الشونة بمسافة قليلة.

لم يتوقف أملها في العودة لزوجها؛ اعتقدت المسكينة لسنوات أن لا ذنب له في الطلاق، محق فيما فعل، مُقرّة بذنبها وخيبتها.

مسهما الحقد والحسد؛ من عيون صديقات الطفولة بسبب هذه البطانية اللعينة، رقصن فوق عربات الكارو، في زفة شوارها إلى غرفة العريس في بيت أبيه، حتى أخواته تعجبن لها ولقميصيّ النوم الأحمر والوردي اللذين اشترتهما من محلات شارع السكة الجديدة الذي لا يعرفن طريق الوصول إليه أصلًا.

سألت نفسها: "لماذا لم يطلق مخدومها زوجته رغم ابتلائه بثلاث إناث، لا اثنتين؟" بذكائها الفطري، قارنت ووعت، قررت الهجرة للأمل في مستقبل أفضل لطفلتيها؛ بالتعليم، كي لا يصيبهما ما أصابها.

نهضت مبتسمة كعادتها، من تحت غطائها ببطانية حمراء تحت لحاف منجد بالقطن غنيمة حصلت عليهما من جهاز عرسها بعد عراك بالعصي بين إخوانها الذكور وطليقها، أيقظت أخاها المتطوع للمبيت بجوارها في العراء كحماية لها.

أحاطهم عدد كبير من كلاب الشارع، نائمين في وداعة، رؤوسهم تلامس رؤوس الطفلتين؛ استدفؤوا ببعضهم البعض من صقيع شهر يناير القاتل؛ المعروف عن محافظة الدقهلية.

❖ ❖ ❖

أول لقاء مع العفاريت

من تحت الغطاء إلى محل البقالة المواجه لبيتها مباشـــرة، حافية تشتري بتعريفة حلاوة شعيرية كصنف حلو بجانب لحوقي (صينية) مملوء بالفول المدمس، والكثير من الأرغفة والبصل والسريس.

نظرت إليّ عطيات بحنوّ وأنا أشــــتري الحلوى، أطلقت تكبيراتها وبسملتها في وجهي؛ لحمايتي من عفريت حكت عنه لصاحبة البقالة، رأته يخرج من أسفل جرار المحل، مقطوع الرأس، مرتديًا بذلة سوداء، نصحَته برش الماء بالملح في أرجاء المحل، لطرد الروح.

رغم تأكيدات أمي بعدم وجود عفاريت إلا أنني أعددته يومي الأول للتعرف على مشـــــاعر الرعب وفوبيا الظلام والليل؛ توقيت خروج العفاريت من مخابئها.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

محضر

تعجبتُ لرؤية ابنتها الكبرى التي تصــغرني بســنتين بالمدرســة، جميع من في الحارة لا يرســلون أولادهم للمدارس إلا بعد تحرير محضــر من قبل وزارة التربية والتعليم ضــد ولي أمر الطفل الذي تجاوز الســتة أعوام ولم يلتحق بالتعليم، وقد يأتي الإنذار تلو الآخر حتى يخشــى الأب دفع الغرامة فيدفع بالأبناء للدراســة مرغمًا، ليســقط عامًا، وينجح في التالي تلقائيًا بأمر الوزارة حتى يســتنفد مرات الرسـوب في الابتدائية ويتم رفده أو يتخرج من الابتدائية وهو بالكاد يكتب اسمه.

❖ ❖ ❖

زكام

في ليلة ممطرة تملكني القلق على عطيات وطفلتيها من الإصابة بالسخونة والزكام من بلل الشارع، استيقظتُ في الصباح التالي، أنفي بلون الطماطم؛ مصاب بالرشح - وكالعادة - المذياع يصدح بقرآن الصباح من الإذاعة، وبرامج إذاعة الشرق الأوسط وأغنية كوكب الشرق أم كلثوم (يا صباح الخير يا اللي معانا) أو المطرب محمد قنديل (يا حلو صبح يا حلو طل)، ألبستني أمي ثلاث فانلات بكُم، لا بد أن تكون إحداها ظهرها للأمام، و"جاكيت" ثقيلًا من الصوف تريكو -أتقنت أمي وخالاتي شغله وتزيينه- فوق المريلة.

بحثت عيناي عنها، وجدتها تخرج من تحت مشمع بلاستيك من أجولة الأسمدة الكيماوية، مخيطة معًا، تعجبت: "كيف يتنفسون أسفله؟!"

ألقت عليّ تحية الصباح؛ مبتسمة، تعجبت لها؛ كيف لم تصب بالرشح؟!

❖ ❖ ❖

مدارس حكومية

دخلتُ الحضانة في مدرسة الأندلس الخاصة المجاورة للمدرسة حيث تعمل أمي قبل تسميتها (kg) لنقص سني شهرين عن الحد الأدنى للقبول في الصف الأول الابتدائي، قضيت بها عامًا، كل الأطفال متقاربو المستوى المادي، أو هكذا شعرت، انطلقت أمي تحفظني كتاب (معلم القراءة) كله، قراءة وكتابة بالتشكيل! بلا اعتراف بأجازة نهاية الأسبوع أو صيفًا من شتاء.

طلبت مدرستي بقائي لسنة أخرى في الحضانة، ثارت أمي على القوانين في سابقة لم تحدث إلا قليلا، نقلتني إلى مدرستها، قررت دخولي امتحان الابتدائية بنظام المنازل وهو أشبه بامتحان محو الأمية، وهنا بدأت المعاناة فبعد أن كان هناك (دادة) لكل عدد من الأطفال تهتم بهم وتغير ملابسهم وتذهب بهم لمراحيض نظيفة، إلى لا مبالاة وعدم اعتناء ومراحيض قذرة، عدت للبكاء.

❖ ❖ ❖

حمام المُدرسين

تم حل المعضلة الأساسية بالسماح بدخولي حمامات المدرسين، وإن كان بعضها أقذر من حمامات التلاميذ! تبقى (الزن) لفراق الأصدقاء، وتغيير الزي من الكاروه الوردي والأبيض إلى البيج، وغرابة مظهر الأطفال من حولي؛ رائحتهم كريهة، زيّهم المدرسي قذر، لا يتوقفون عن حك رؤوسهم، يحملون حقائب مدرسية من نفس قماش الزي.

أُجهد أبي لإقناعي بالانفصال عن هذه النوعية في أثناء الفسحة والذهاب لخالاتي في الصف الرابع، وفي محاولة من أمي لإرضائي خاطت لي مريلة بكُسر وأخرى (بجيبة كلوش) وثالثة بأزرار أمامية، وفشلت كل محاولاتهما، أخيرًا رفعت أمي صوت التهديد بعدم التعليم مثل أطفال الحارة؛ توقفت عن (الزن) مضطرة.

❖ ❖ ❖

جرح نفسي

كرهتُ أولياء الأمور أكثر من أولادهم، لحديثهم المكرر الثابت لمعلم الفصل: "كسّر عضمه وإحنا نصلح" رغم أن الحديث لم يشملني ذات يوم، شعرت بمهانة كسرت داخلي شيئًا يسمى الإنسانية، كلما كرروها ملأ الخزي عيني، رأيت دماء التلاميذ تسـيل على الأرض ممزوجة بإنسانيته.

ما كل هذا العنف؟! لماذا التهديد والوعيد؟!

أسئلة لم يجبني عليها أحد سوى تأييد لرأيي من خالاتي، لكنني شعرت بشعورهم فعلًا ولو بشكل بسيط في معاملة والدي لي بعد بلوغي العاشرة، فتت في عضدي، وسببت انطواءً على ذاتي وكتمانًا لمشاعري؛ لم أتخلص منه بسهولة.

تعجب أبي أن أخبر الطبيب أن ألمَ بطني ما هو إلا ألم نفسي، رد على مسمع مني وكأني بلا أذنين أو عقل: "ألمٌ نفسي لطفلة؟!".

اجتهدت بعد سنوات؛ لأخبره وأمي عن ألم كرامتي من لغة التهديد والجرح، انسكبت الدهشة من عينيهما، وتساؤل ردداه: "أين ما يفعلانه مما كان يفعله آباؤهما؟"، "أو ماذا فعلَا أصلًا؟"

قصصَا وأفاضا عن ما كان يحدث لهما ضاحكين، قائلين: "أمور عادية من أب أو أم يريدان الخير لابنهما".

رددت:

- **بل أمور قاتلة، لا خير فيها.**

قال أبي ساخرًا:

- **آخر زمن.**

غضبت أمي، وجعلت ما بعد ذلك سوادًا لا يحتمل.

❖ ❖ ❖

ناموس برأسي

ندمتْ أمي أشـــد الندم على انتقالي لمدرســتها عندما أخبرتها أن الناموس يقرصـــني في رأســـي، كادت أن تشـــق ملابســـها من هول الفجيعة، أعلنت الأحكام العرفية للمصاب الجلل، غاب أبي عن العمل؛ وهو ما لا يحدث إلا نادرا، سافر بي خصيصى إلى ابن عمه الطبيب الشهير بالسنبلاوين شاكيًا مصيبته، لخجله من الذهاب لطبيب في المنصـورة، وكان عمي د.عبد الحميد ابن عمدة قريتنا؛ سـترًا وغطاءً كما توقع والداي، وصف ضاحكًا من ضيق أبي، سأسأة للشعر انتهت معها العدوى، ونقلوني بعد فترة العلاج لفصـــل آخر وأجلســـوني بجانب ابنة مدرّسة زميلة لأمي، تثق في خلوها من القمل.

❖ ❖ ❖

شنطة قماش

لم يتوقف ندم أمي بعد سعيها المستميت لنقلي لمدرستها بعد تصميمي على اقتناء حقيبة مدرسة ملونة مثل باقي زملاء الفصل، عبثًا حاول أبي إقناعي بعد أن بح صوتها، وافق على مضض بشرط أن تكون من كسوة كنبة بلدي قديمة أو ملاءة سرير مهترئة، ولا تشتري قماشًا خصيصًا لهذا الغرض، لم توافق أمي مطلقًا ولم يجد طريقة لهذا إلا أن يخبرها بعمل حقيبة قماشية بورود حمراء أملًا رفضي لها فيما بعد، خاطتها متضجرة، سعدت بها أيما سعادة، بت ليلتي أحلم بحملها بنقوشها الجميلة، انتهى اليوم المدرسي الأول لها -كما توقع أبي- بقرار لم أتراجع عنه ثانية بعدم حملها، فهي بلا جيوب والقلم الرصاص يسقط منها، يدها غير مريحة؛ آلمت كفي، والأهم أن خالتي الصغيرة عابت عليها ولم تعجبها.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

محو الأمية

درست منهجين كل عام طوال المرحلة الابتدائية، مقيدة في الصف الأول، وأدرس في فصل الصف الثاني، وأحضر امتحانهما، العام التالي أؤدي اختبارات الصفين الثاني والثالث، هكذا حتى الصف السادس أديته مع المتسربين من التعليم في السويس، ومعي طفل آخر من الصغار في اللجان، البقية من الكبار، نسوة ورجالًا، ارتعدت خوفًا من مراهق بوجهه ندبة عميقة إثر جرح غائر، رفضت إعطاءه حل سؤال، هددني بالضرب بعد اللجنة، تركت السؤال الأخير من مادة الرياضيات دون حل، سلمت كراسة الامتحان وخرجت من اللجنة عدوا قبل انتهاء الوقت لأمي المنتظرة بالخارج، بكيت ورفضت إكمال الامتحان، بذلتْ مجهودًا كبيرًا لإقناعي بحضور بقية الاختبارات، حصلت على الشهادة الابتدائية بمجموع ٩٦ ٪ بسبب عدم حل سؤال الرياضيات الأخير، نظام بفضله أنهيت تعليمي الجامعي قبل أن أتم عامي الواحد والعشرين، إلا إنه أشبعني غضبًا طيلة المرحلة الابتدائية كوني مُهمَلًا في الفصل، غير معترف بي، لماذا لا يذكر اسمي عند حصر الغياب اليومي وأنا الأولى على الفصل؟

هنأت نفسي أخيرًا؛ بنداء اسمي في الصف الأول الأعدادي.

❖ ❖ ❖

الحاج وزة

ثاني بيت، الثاني في الحارة؛ أسمنتي من دور واحد، تقطنه عائلة الجد (وزة)، أطلقت أمه عليه هذا الاســم حتى لا يتعرض للحســد ويعيش بعد أن مات كل أطفالها بعد الولادة مباشــرةً، لا يعايره به أحد ولا يسخر منه، متصالحًا مع نفسه باسمه، لم يفكر أن يغيره.

بيته يتســع للكثير، بالإضــافة لغرفة بنتيه الاثنتين، هناك غرفة للأبناء الذكور غير المتزوجين، احتل كل ابن متزوج من أولاده السبع غرفة، يعيش فيها هو وزوجته والأبناء؛ مهما بلغ عدد الأبناء، خمسة أم سبعة، لا يهم؛ الأرض تسع الكثير من الأطفال، للأسرة عربة كارو هي مصدر دخل الجميع، كبيرة تستخدم لنقل الأثاث، يعمل عليها كل الأبناء، يحملون وينقلون الأثاث أو أجولة الأرز وخلافه؛ تحت قيادة الأخ الأكبر، عاشوا مسالمين، لا يعادون إلا من عاداهم، لم أشهد لهم الكثير من المعارك، لاهثين دائمًا خلف طموحهم بشــراء عربة ثانية ثم ثالثة، وبناء الدور الثاني لمزيد من الغرف لزواج الإخوة الصــغار، يحلمون بيوم زواج الأخ التالي وإنجابه السريع لطفلٍ ذكر يساعدهم في العمل عندما يشتد عوده، وفي المساء يجلسون متسامرين متذكرين الفرح السابق وما حدث به من صخب.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

شبشب العيد

ما لم يبلغ طفلهم الرابعة، فنصفه الأسفل عارٍ وحافي القدمين حتى في الشتاء، لم أرَ أحدهم مرتديًا ملابس نظيفة أو (شبشب) إلا يوم العيد صباحًا، ليرتَدّوا لما كانوا عليه من قذارة عند الظهيرة، لنسائهم طقوس خاصة في حياتهن أو أسلوب حياة، تفترش الأرض أمام المنزل وترضع صغيرها بثدي مكشوف أمام المارة، أو مسح أنفه بطرف ثوبها، حفاة في أغلب الأوقات، مرتديات الجلاليب السوداء أو ملاءة لف فوق قميصها القذر المبلل ببول رضيعها، لا تهنأ بنظافة إلا بعد عودة الزوج في المغرب، والانتهاء من إطعامه والأطفال، وبعضهن لا يعرفنها أبدًا.

❖ ❖ ❖

هجرتي

لم تنهر أمٌّ طفلها عن التبول على حائط منزلهم ولكن تحدث معركة كبرى إن غارت إحداهن من جارة في بيت مقابل، حينها تدفع ابنها للتبول أسفل نافذتها؛ لتقوم الدنيا ولا تقعد، ليس بسبب الرائحة لكن باعتبارها إهانة، يتشاجر الرجال ويسبون بعضهم، وتصدح النساء بموشحات ومواويل من الردح المحمل بكل أطياف السباب والإشارات البذيئة.

تنمر أحفاد عم (وزة) عليّ لطولي وحجمي الملفت، وربما لمظهري النظيف وهندامي، أظنني كنت أطول طفلة في الفصل ووسط أقراني بالحارة، شكوت للجد، رحب بي، أطلق عليّ لقب ابنة الرجل المحترم، صفع الحفيد المتهم، وحذرهم جميعًا وأمرهم بالتوقف وفي الحال عن مضايقتي، حسبتُ تنمرهم هذا كراهية؛ تعجبت: "لم أسئ لهم!"، لم يستوعب عقلي الصغير أنها كراهية الاختلاف.

ألعاب أطفال الحارة، عروس من قماش محشوة بالقطن للبنات، أما الذكور فالسبع طوبات، وكرة القدم، ودفع إطار قديم متهالك لسيارة أمامه، أو استخدام أغطية الزجاجات الغازية وبكر الخيط وعمل إطارات توضع في نهاية عصا خشبية والجري بها في الحارة، وما يشبه (الأسكوتر) والزلاجات من الخشب، يسبون بعضهم بالأب

والأم وســـب الدين إن لزم، كأنه طقس من طقوس اللعب، ولا عتب من أحدهم عملًا بالقول (الشتيمة تلف.. تلف وترجع لصاحبها).

الهجرة الطوعية نفســـية كانت أو مكانية، هي الخطوة الأولى بعدها تتفاقم مشـــاعر الاغتراب عمن حولك، لم أعترض يومًا على جهلهم، أو فقرهم، إنما لاغترابي عن أفعالهم، أمر عبر الحارة لمنزلنا مغلقة أذني عن ألفاظهم المقيتة؛ ناظرة للأرض أعفي عيني من أذى عريهم، أغطي أنفي بمنـديلي القمـاش الأبيض، مزين الأطراف بالدانتيل والتطريز، بينما يمسحون مخاطهم بأصـابعهم، أو يتركونه متدليًا من أنوفهم، هجرتُهم نفسيًا دون وعي لفلسفتها ومعانيها.

كانت مَرْيَلة المدرسة ذات جيبين، يوضع بكل جيب منديلٌ قماشيٌ، مفرود بالمكواة مثل المريلة، من أعظم العيب أن تمســـك منديلًا غير مفرود، وكما الملابس نملك مناديلَ مزركشة للمدرسة وأخرى مشغولة الطرف مزينة (بالدانتيل) اللامع للزيارات والتنزه.

أما مصروفي اليومي؛ فقد احترت كيف أحافظ عليه من السرقة إن وضـــعته في الحقيبة، أو الســـقوط من أحد الجيبين إن جريت مع الأصحاب.

❖ ❖ ❖

كلنا أحفاد وزة

عذبني ضـــميري لدرجة البكاء ندمًا أن تنمرت على ماجدة ذات يوم، وهي مجرد ضحية من ضحايا ظلم البشر، عاشت في ملجأ يقع في الطريق بين حارة عبد الجابر ومدرستي، مدرسة العروبة المشتركة، قصـــر باشـــا ســـابق، جعله وقفًا، دار أيتام، رغم كل التبرعات للملجأ تأتي للمدرسة في برد شهر (طوبة) بالمريلة البيج فقط على جسدها النحيل، بلا طعام (ســندوتش) الفســحة، حاملة حقيبة قماشــية، لا تحوي أحيانًا كراسًا أو قلمًا، تجلس على آخر مقعد في الفصل، ما كنا نعده مقعد الفاشـلين (الخايبين)، جفونها منخفضـة لنصـف عينيها، دون ردة فعل تشعرك بالفهم أو السمع، تجعلك تتساءل: "هل تراني؟"

همست صديقة أنها شاهدتها في حمام المدرسة بلا ملابس داخلية ما اعتبرته جرمًا لا يغتفر ويستوجب العقاب، وباعتباري ابنة مدرّسة في المدرســـة ومتفوقة الفصـــل، أقف على الســـبورة في غياب المعلمة، أحافظ على هدوء الطلاب وأكتب اســـم من يتكلم أو يصـــدر عنه ضـــوضـــاء أو شـــغب، لمحتها تنظر من النافذة، كتبت اسمها ضـــمن المخطئين، حاولتِ التحدث معي لشـــطب اسمها، نعتها بقليلة الأدب ولم أذكر الســـبب، لوجود أولاد بالفصـــل، فعلت فعلة أحفاد (وزة)، كرهت اختلافها.

❖ ❖ ❖

الملجأ

شـرحت لي أمي حالها المأساوي، تعجبت أن أحدًا لا يملك ملابس داخلية، لم أنم، أرّقني خوفي من الله أن يحرمني من ملابسي مقابل إهانتها، استسمحتها في اليوم التالي، اعتذرتُ بشجاعةٍ دون طلبٍ من أمي للتكفير عن ذنب وقوعي في شرك كراهية الاختلاف، وسط عدم فهم التلاميذ لسبب الاعتذار، لم أفهم نظرتها المعتادة، غاضبة أم سامحتني؟

هُجِرت ماجدة لليأس، سكنت فيه، أصابها بموات من لا يحلم بغد، ولا يرتعد دون ملابس في الشتاء.

ذهبتُ للملجأ في إحدى زياراتنا للمنصورة متمنية وجودها لأنال عفوها، مع الأسف اختفت، لم أتلقَّ ردًا شافيًا عن مكانها، كلما تذكرتها دعوت لها، تمنيت من الله أن يسد عني دين إهانتها والتنمر عليها.

❖ ❖ ❖

خيط ملون

على شاكلة بيت (عمو وزة) ثلاثة بيوت من طابقين، على مساحات طولية ضــيقة، مقابلها مســاحة أرض فضــاء، اســتخدمت لتخزين أجولة لطعام حيواناتهم وطيورهم التي تمرح في الحارة، تحمل كل واحدة رباطَ خيطٍ ملونًا مميزًا على جناحها، والويل كل الويل لمن تسرق دجاجة من جارتها، تنقسم الحارة على بعضها، ينفعل الرجال لأجل صديق أو جار، يرفعوا العصي، يشجوا الرؤوس، تشد النسوة شعور بعضهن، والمنتصرة من تلطخ وجه الأخرى بطين الأرض وروث الحيوانات، تاركة أثر أســـنانها في وجه أو كتف غريمتها، يتدخل في الشـــجار عنصـــر المجاملات للحماة أو الأم، وقد يطلّق رجلٌ امرأته لأنها لم تدعم أمه وتضرب عدوتها!

❖ ❖ ❖

سوريا الجميلة

فصل بيت سوريا -المبني بالطوب اللبن وسقفه من ألواح الصاج- الثلاثة بيوت ذوات الطابقين وحوش فوزي ركس.

ولدت سوريا في نفس عام وحدة مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨)، اسمها نتاج عشق الأب وحماسته لزعيم العرب آنذاك، الرئيس جمال عبد الناصر.

مراهقة في الرابعة عشر، ذات جسد أنثوي بض، لا يتناسب وعمرها، بشرتها مخملية باللون الخمري الفاتح؛ عيونها واسعة، لونها عسلي فاتح شفاف تكاد ترى ما بداخل مقلتيها الفاتنتين، على رأسها تاجٌ من شعرٍ كثيف، ناعم، أبدع الخالق في صبغته بكل درجات اللون البني حتى الأشقر؛ معقوص دائمًا على شكل (كحكة) أسفل رباط رأس مثلث أبيض (قرطة) من قماش خفيف جدًا (باتستا)، وإن كانت القرطة تبدأ من منتصف رأسها؛ غالبا ما تنزلق حتى الكحكة أو الضفيرة، إلا أنه محرم خلعها.

وحيدة هي على أربع إخوة ذكور؛ حمالين وعربجية، أمها جالسة دائمًا أمام الباب ترقب الرائح والغادي، تدخن "الجوزة" وتبصق على يمينها ويسارها.

بجانب خدمتها لأمها وأخوتها، خدمت في بيتنا، حزنت كثيرًا حين توقفت للمجيء عندنا؛ للمشـــاركة في بناء بيت لهم بالطوب الأحمر بدلًا من القديم، حملت مع أخواتها الطوب وشـــكائر الأسمنت من العربة الكارو للداخل، ناديتها من الشرفة:

- لا تحملي الطوب؛ ظهرك سيؤلمك.

ابتسـمت لي؛ ضـحكت مني الحارة كلها، خجلت وبكيت، تخيلتها في طفولتي أنها تنام واقفة؛ مفتوحة العينين، عيناها سارحتان ساهمتان بعيدا؛ حالمة، وكأنها تنتظر آتيًا من بعيد يركب الهواء، لم أفهم أنه نوعٌ من الهجرة بعيداً عن قسوة الحياة، وعنف إخوتها.

❖ ❖ ❖

الفارس ركس

ناديت:

- يا عم فوزي ركس.

ليربط كلبه (ركس) الذي لا يكف عن النباح كلما مر أحدهم بجوار حماره، كاد الخجل يقتل أمي؛ صرخت في وجهي وهي تشدني من النافذة:

- اسكتي.

اعتذرت أمي له، مفسرة الأمر أنه خطأ طفلة.

بنظرة حنو، ومحاولة فاشلة للابتسام، دعا لي بالحفظ.

عرفت فيما بعد أنه لقب أطلق عليه نكاية فيه من أولاد الشربيني، ساكني آخر الحارة.

فوزي عربجي بأخلاق فارس نبيل، أصابته لعنة اختلافه عن باقي عربجية الحارة، سألت والديّ:

- ليس شريرا، لماذا يكرهونه؟!

شرحا باقتضاب، بأساس أني صغيرة والأمر لا يعنيني، لم أستوعب إلا بقدر ما أشاهده في أفلام الكرتون المستحدثة وقتها، أن بالحياة قلة طيبين، ووفرة من الأشرار.

وجْه فوزي بلون وملامح سكان أمريكا الأصليين، بشرة سمراء غامقة مشربة بالحمرة، جبهة عريضة، وأنف معقوف، شعره بني غزير يصل لكتفيه، لباسه الدائم صديري أبيض، بخطوط سوداء، أسفله فانلة داخلية كانت بيضاء ذات يوم بعيد، بِكُم شتاء ومن دون

أكمام صيفا، بنطال أسود قصير يصل لأسفل ركبته، واسع إلى حد ما، وفي قدميه (بلغة) باللون البيج، لا تستطيع من هيئته تحديد هويته، بلا لكنة مميزة تدل على أصوله، أهو صياد؟ بحراوي؟ أم بدوي؟

سكن الحارة منذ سنوات قليلة، لا يزوره أقارب، لا يجالس الجيران، لا يشتم أو يسب، لا يشرب الخمر؛ لا يدخن الحشيشة.

مهاجرًا بروحه إلى داخله وأسرته، أمرٌ مجهول اضطره لذلك؛ تراه الماضي؟ أم لاختلاف روحه وخلقه عن أهل حارة عبد الجابر؟

زوجته مستكينة هادئة، علا بشرتها شحوبٌ شديد، تبقى داخل الحوش، لا تجلس بالخارج إلا مع زوجها، ارتدت دائما (جلابية) نظيفة كالحة، ذهب لونها، ترتفع عن الأرض قليلًا، فوقها (بلوفر) مفتوح لزوم التدفئة في الشتاء، ككل نسوة الحي، تربط (قرطة) على شعرها الأصفر الباهت الجاف، تناسب عيونها الزرقاء الباهتة، تنتعل (شبشب) و"شراب صوفي رجالي"، أطفاله نظيفون ينتعلون (الشباشب)، لا يقضون حاجتهم في الخارج، ولا يلعبون مع أطفال الحارة، ملتفون حوله دائمًا، يلاعبهم بحنان.

سكن قبالة عمارتنا، في حوش غير مسقوف، في مقدمته حجرتان مسقوفتان بألواح الصاج، إحداهما له وأولاده، والأخرى للحصانين اللذين يجران عربته الكارو، والباقي مساحة فراغ لتربية الطيور، ولعب أطفاله، والغسيل وخلافه.

❖ ❖ ❖

حمام الحصان

بتعجب ولهفة طفلة في الرابعة من عمرها صـرختُ من الشـرفة مندهشة:

- هل يستحم الحصان يا عم فوزي؟!

رفع رأسه؛ مجيبا بمرح:

- عنده مدرسة غدًا.

علت ضـحكتي، قاطعتها ضـحكة مائعة مفاجئة رنانة من الأعلى رفعنا رأسـينا للأعلى، تجهم وجهه، خفض رأسـه بسـرعة، بدا وجه أم ياسر مصدومًا، ناديتها بصوت عالٍ، أسأل عن سبب صعودها السطح، دجاجاتها في المسـقط؟ اختفت كعفريت، باغتت الجميع أم جميلة بالظهور في شـرفتها، كغراب رأى قطعة جبن، دققت النظر نحو سطح بنايتنا، خفضت عينيها، تأملت فوزي، هزت رأسها، هزت شفتيها يمنة ويسارًا، لطمت خدها بأطراف أصابعها.

ناديت أبي لمشـاهدة حمام الفرسـتين، أتى متحرجًا، ألقى التحية على فوزي، ردها محييا بالتربيت على رأسـه، أمرني بغضـب ألا أعلق على أي مشهد، وألا أحادث أحدًا من الشرفة، غضبت لأوامره:

- لا أحادث إلا (عمو) فوزي.

حممهما بفرشــاة، حك قوائمهما بها، مشــط شــعرهما، بِتُّ أرقبه قبيل المغرب، يصلح الحدوة، ينظف السرج.

كدت ألقى حتفي ذات يوم؛ أن رأيت أبناء الجيران يجلســـون على أســوار شــرفاتهم، جلســت مثلهم، اختل توازني؛ لولا حبال الغســيل المشدودة بقوة؛ استندت؛ نزلت بسرعة، صدقت أبي وأمي حين قالا: "أنتِ مختلفة عن أولاد الحارة"، قلبتُ على الحادثة (ماجور)!

عشقت السرجين الأحمرين وتطريزهما المختلف عن كل الأسرجة عديمة اللون المنتشــرة في الحارة، ربط بناصــية كل واحد منهما كفًّا (خمســة وخميســة) ذهبيًّا، يتوســطه حجر أزرق، معلق به دلاية كف خماسي أصفر وخرز ملون؛ يصدرون جلبة محببة جدًّا إلى نفسي، كأحصنة (الحنطور)، وسيلة المواصلات الأساسية في المنصورة آنذاك.

❖ ❖ ❖

شعر الحصان

أصبت بما يسمونه (نفرة) زائدة جلدية سوداء بمساحة وبروز ملليمتر واحد في جبهتي، انزعجت لها أمي خصوصًا بعد أن أخبرها الطبيب بوجوب إزالتها، عدت أبكي رافضةً إجراء العملية، رآني عم فوزي، تدخل لإسكاتي بأن يركبني على الحصان، علم السبب، نصح أبي بربطها بشعرة حصان حتى تموت الزائدة وتقع وحدها، نتف بعض الشعيرات من ذيل الحصان، أعطاني إياها.. وقعت الزائدة بعد أربعة أيام من الربط.

كوسيلة لشكره؛ طلبت أمي شهادة ميلاد ابنه الأكبر للتقديم له في امتحان الابتدائية (منازل) لتخطيه السن بكثير، فوجئتْ أمي برده: "أولادي بلا شهادات ميلاد!"

باندفاع سألتُه:

- لماذا؟

لكزتني أمي في كتفي اعتراضًا على سؤالي، أجاب ضاحكًا:

- أمر الله يا ست البنات.

أسرعت أمي بي عائدتين للمنزل.

- كيف بلا شهادة ميلاد؟ ولماذا؟ ألا يتم تطعيمهم؟! إذا.. لا بد سيمرضون..

انهمرت أسئلتي على أمي حتى ضاقت بي وتركتني وحدي أتأملهم من الشرفة.

التيفود

مرضتُ بعدها بالتيفود، ثم انتكستُ به، العلاج الوحيد المعروف وقتها كان حقن البنسلين المصري، وما أدراك ما هي، ألمها فوق الاحتمال، لم يمرض به أي طفل آخر في الحارة، توجهتُ لأمي بالسؤال:

- لا يغسلون أيديهم؛ يأكلون حلوة مكشوفة، كيف لا يمرضون وأنا أفعل عكس هذا كله وأصاب بالتيفود؟!

- لطف الله بهم، وإلا ماتوا جميعًا.

علمت أن لطف الله هو الأساس، غسل اليدين ما هو إلا سعي للحصول على لطفه، ثم يهبه -سبحانه- لمن يشاء.

❖ ❖ ❖

حب

وقفتُ بالشرفة أرقب فوزي، شد أحزمة السرج على الحصان، مر طفل يبكي بصحبة أمه، انتظرته يطيّب خاطر الطفل ويركبه على الحصان، مثلما فعل معي؛ لكنه لم يعِرهما أية اهتمام!

فسرتُ الأمر وقتها أنه يحبني كأعمامي، والآن فهمت أن حبه لي تآلف لأرواح مهاجرة للسلام والنقاء.

❖ ❖ ❖

المتهمة

لأمانة فوزي وقوته اســتأجره مدير المضــرب لنقل الأرز للأماكن القريبة، إلى جانب عربات أولاد الشــــربيني، اتهموه بالاعتداء على رزقهم، وما انفصــاله عنهم وعدم مشــاركته لجلســاتهم وأفراحهم إلا تعاليا، افتعلوا معه وزوجته الكثير من المشــــكلات، تحاشـــى فوزي العراك معهم بحكمة دون التنازل عن كرامته.

مرضــتْ إحدى بنات الشــربيني، أســرعت أمها لفاتح المندل، أبلغها بمواصفات صانعة السحر المعمول بالمرض ووقْف الحال والعطلة عن الزواج، انطبقت الأوصاف على زوجة فوزي، استشاطت الأم.

ظهرتـا في غيـاب الرجـال، شمرت ذراعيهـا، حلـت (القرطـة) عن رأسها، قذفت بمداسها جانبًا، قلدتها ابنتها واتبعتها إلى باب الحوش، أمســـكت بذراع زوجة فوزي، هزتها بقوة بعد وصـــلة من الردح والاتهامات، عبثا حاولت المســكينة الدفاع عن نفســها أنها لا تعرف الطريق خارج الحارة لتذهب لسحرة، فصلت أم ياسر بينهما، أمسكت أم محروس بشــعر فوديها، أقســمت أن تحلق (مقاصــيصــها) إن لم تحرق قلبها، كما تسببت في مرض ابنتها.

عقــد فوزي مجلس حق، شمــل أولاد محروس وطــه ومرقص وعربجية آخرين، لم يســـاند فوزي إلا طه ومرقص، تبجح أولاد الشربيني وتوعدوه.

خاف فوزي على أطفاله، أمرهم بعدم الخروج من الحوش نهائيًا وإغلاق البوابة بالجنزير دائمًا.

شهداء السم

عكس ما توقع؛ ألقوا السم لحصانيه من فوق سطح أم جميلة، أرعبني كثيرًا مشهد الموت، خبرت ألم خروج الروح، بكيت لبكاء (عم فوزي ركس).

نام بينهما على الأرض محتضنًا رأس أحدهما بذراعيه، انتفض مع كل ارتجافة عضلة للحصان، مسح دموعهما وفاض دمعه، سال القيء المملوء بالدم المسموم على الأرض وملابسه، صرخ مع انتفاضتهما الطويلة، الأخيرة؛ علم أنها النهاية، فاضت روحهما الواحد تلو الآخر، نهر زوجته لأنها لطمت وكشفت رأسها للدعاء على المتسبب أن يموتوا ميتتهما، ثار رجب وعرفة أن زوجته تقصدهما، وما بغيا إلا التحرش بفوزي وإقامة عراك لضربه وإحداث إصابة به أو عاهة، خدمة لأسيادهما أولاد الشربيني، أسرع عم طه، بالنزول بلباسه البفتة الأبيض، تعاون معه عم مرقص، فوّتا الفرصة على رجب وأخيه.

❖ ❖ ❖

عيد ميلاد غير سعيد

لتهدئتي وإلهائي عن البكاء؛ أخذني أبي لبيت جدتي لأمي في منطقة رغم أنها قريبة من الحارة إلا أنها راقية حيث هجرتي الدائمة، ألعب مع أقراني في الشارع المتسع، (هيلاهوب) وهو لف طوق كبير بحركة دوران الوسط، وصيادين السمك، والكلب الحيران.

حل عيد ميلادي الخامس، والذي يتوافق مع تاريخ مولد خالتي الصغيرة، وهو حدث جلل سنوي بالنسبة لي، ألبس ثوبًا جديدًا لا يقل جمالًا وكلفة عن أثواب العيدين، لا بد من فرد شعري من ضفائره، مثل الطفلة فيروز في فيلم ياسمين، ووضع مساحيق التجميل وأحمر الشفاه مثل أمي.

من أول النهار، تتعاون جدتي وأمي وخالاتي، لصناعة (التورتات) والحلوى الكافية للأصدقاء وأطفال حي جدتي وأمهاتهم، تلف الأسطوانات لتصدح الموسيقى والأغاني طول اليوم من جهاز (بيك أب)، جعله مالكه وهو أحد الجيران في خدمة أفراح وأعياد ميلاد الحي كله، التقط خالي الكبير صورًا كثيرة أبيض وأسود بكاميرا حديثة آنذاك.

جاء الشيخ إبراهيم بزيه الأزهري ظهرا -متأخرًا- ليقرأ القرآن في بيت جدتي، مثل كل بيوت الحي، بمقابل مادي، أظنه قرش صاغ يوميًا، كفيف، تفوح منه رائحة المسك.

اعترضت بشدة؛ كيف يقرأ القرآن يوم عيد ميلادي؟! القرآن للأيام العادية صباحًا، القرآن في الظهيرة حزن كيوم وفاة جدي، ضحك الشيخ مني، أصرت جدتي ألا تصرفه دون قراءة، عبثًا حاولت إقناعي أنه بركة لليوم، دون نتيجة، شعرت بانقباضة، بقيت غير سعيدة طول اليوم.

❖ ❖ ❖

الجلاد

حفظتُ الطريق لبيت جدتي، اختبرتني أمي بالسـير خلفي أول مرة، دون أن أدري، نجحت في الاختبار، سُمِح لي بالذهاب بمفردي.

ذات عصر وفي الطريق مررت بقسم ثاني المنصورة، أفزعني صوت (طرقعة) عالٍ غريب يعقبه صـراخ رجل متألم، التصـقت بحائط أرتعش، تجمدتْ قدماي، جرني زوجان بعيدًا، مشـفقين، بكيت أخيرًا، هو تعذيب لمتهم للاعتراف أو عقوبة مسـجون، وهي عقوبة كان مصرحًا بها.

وصـلت البيت منهارة، رقدت لأسـبوع؛ تحركت بعدها أحمل همّ المعذبين في الأرض، عانيت من كوابيس بصوت صراخه، أو أني أُعذّب بدلًا منه، لم يتخيل أحدهم أن مثلي مملوءة بتلك المشـاعر، تعاطفت خالتي الصغيرة مع عذابي، نصحتني بالصلاة وقراءة القرآن ليزول همي، ويفك الله كرب المعذبين، صـليت وقرأت ما حفظته في المدرسـة، زالت الكوابيس قليلًا.

كم كانت سـعادتي لثورة التصـحيح، لم أفهم ماهيتها ولا ما أحدثته؛ إلا أنها عزلت صـلاح نصـر الذي يعذب ويجلد ويحرق، حسـبته مَن جَلد سـجين القسـم، صـفقت لمحاكمته، اعتقدت خطأً أن عذاب السجناء انتهى، جاء من بعده جلادون كُثر، اكتشاف.

أصـابني بفوبيا من كلمة تعذيب بكل صـورها وأشـكالها، جسـديًّا ونفسيًّا، لا أحتمل مشاهدة أي فيلم يحوي مشـهد تعذيب، أو مشـاهد الموت.

مولانا

يوصـــلِ طفلٌ من كل بيت في المنطقة الشـــيخ إبراهيم بعد انتهاء قراءته للبيت التالي في جولته اليومية لكسب رزقه، ولأني أصغر من خالتي أمرتني جدتي بمصـــاحبته، لِحَظِّه الأســـود حاول مولانا التحرش بي على الســـلم ومحاولة تقبيلي، دفعته، كاد يســـقط على السلم، عدت لجدتي غاضبة وأبلغتها، طردته دون إبلاغ أخوالي، سألت بنات الجيران، اتضـــحت حقيقته، والصـــغيرات لم تتم توعيتهن كما فعلت أمي، طرد من المنطقة، نسيت الحدث لفترة لكني كرهت كل من يرتدي الزي الأزهري ورائحة المســـك، كبرت وعلمت أن لا دخل للزي في ما حدث، العيب في أخلاق البشر وما زلت أكره المسك.

حُرِّمَ علينا اللعب في الشـــارع لفترة طويلة بعد وفاة رباب، بقي الحائط الذي شهد وفاتها مكروهًا مخيفًا لا يقربه طفل من الشارع، أراها فيه كلما مررت أمامه، رأيتها في منامي؛ تعود للحياة؛ مبتسمة، مرضـــت أمها بكل الأمراض، هاجروا لســـكن آخر، وعادوا لبور ســـعيد بعد انتهاء الحرب.

❖ ❖ ❖

رباب

بعد عيد ميلادي بأيام قليلة دهســـت ســـيارة رباب بنت الجيران، تصغرني بسنتين، كانت صدمة للجميع، لم يرَ الحي سيارة مسرعة من قبل، السيارات قليلة العدد جدًا والسير هادئ، سألت: "كيف تموت وهي بعد صغيرة؟"، حسبت الموت للكبار فقط، بت أخاف الموت، خشيت القبر المغلق ووحدته وظلمته، كبرت وحسدت من ماتوا أطفالًا.

قالوا ما انقباض قلبي يوم ميلادي إلا تنبؤ طفلة نقية المشـــاعر بالحادث، والحقيقة أن الانقباض ظل ملازما لي إن سمعت قرآنًا في الظهيرة أو المســـاء، لارتباط وقت القراءة بوفاة جدي والرئيس عبد الناصر، لم أعرف حلاوة تلاوة قرآن الليل إلا في ثلاثينيات عمري.

بكيت رباب بعذاب ضمير، كانت تحبني وأضيق بها وأختي الصغيرة لإصرارهما الاشتراك في لعبة السلم والثعبان معي وهما لا يتقناها، تجبرني أمي على ملاعبتها وأختي ومراقبتهما، أشـــاهد أقراني يلعبون وأنا أجري خلف أختي، مللت المسؤولية المبكرة.

كان سرادق عزائها عظيما، زاد خوف قلبي وانقباضه لسماع القرآن المجود ليلًا، كفعل الشـــرط أنتظر معه فقدًا وحزنا وبكاء، أحيا الليلة شيخ آخر كفيف، حسبت كل المقرئين؛ مكفوفين.

❖ ❖ ❖

مقتل ركس

بعد أيام من قتل الحصانين؛ سمموا الكلب ركس.

اشترى فوزي حمارًا لجر العربة، قلّ دخله كثيرًا، فما يقدر الحصانان على جره، لا يستطيعه حمار واحد، لم أرَ عم فوزي يبتسم من بعدها، تعجبت لحاله، سألت:

- ألن ينسى؟

شرحت أمي:

- الحصان له مثل أولاده، مصدر رزقه وقوته.

❖ ❖ ❖

فرح علي

لم تحتَجْ أم محروس للبحث عن سبب للاحتفال لكيد فوزي وزوجته، حان موعد عقد قران وزفاف علي، قرروا أن يكون الفرح مثل أفراح البهوات، أن يجمع السرادق الرجال والنسوة، زفة بالراقصات من أول الحارة، التقاط صور للعروسين عند مصور فوتوغرافي، والأهم ارتداء العريس لبذلة سوداء وقميص ورابطة عنق.

فرشوا الحارة بالرمل ونشارة الخشب الملونة، علت مكبرات الصوت، والأنوار على الشرفات، دوت الزغاريد ذات الضحكة الرقيعة؛ الأغاني الكيدية مثل أغنية (والنبي لنكيد العزال) للمطرب محرم فؤاد، وعايدة الشاعر وليلى نظمي.

منديل العريس

اضطر علي للاستعانة بصبري لمساعدته في ارتداء بذلته وعقد رابطة العنق، نزلت لشقة (نينا) أم صبري خصيصى لمشاهدة علي نظيفًا للمرة الأولى في حياتي؛ وربما كانت الأخيرة، مرتديًا بذلة وحذاء، طلب صبري أن آتيه بورقة كراس بيضاء، أحضرتها، طبقها ووضعها بالجيب العلوي لبذلة العريس بدلا من المنديل الأبيض، لتكتمل أناقته من أجل الصور، وضع كولونيا بدلًا من العطر.

بدأ الفرح، بعد انتهاء الزفة ووصول العريس، لحظة سكون لجلوس العروسين، ناديت صبري الواقف في شرفته بالأسفل؛ من شرفتنا:

- فكرة جميلة أونكل صبري، أنت ذكي؛ الورقة في الجيب تشبه المنديل جداً.

اختفى العم فوزي خجلًا، حكم أبي عليّ بالدخول وعدم مشاهدة العوالم والراقصات.

❖ ❖ ❖

فيلم عربي

في اليوم التالي؛ سموا حمار فوزي، بكت زوجته حبيبًا مات، صنعا بعدها سقفا من الصاج للحوش.

وقف متهدل الكتفين، ساقط الرأس للأسفل، علت منه تنهيدة عالية بين الفينة والأخرى؛ اشترى سيجارتين (فرط) من عم مرقص، أبلغت أبي بمخاوفي أن يشرب خمرًا، كما أبطال الأفلام العربي إذا حزن، احتار أبي؛ أيضحك على كلامي أم يحزن له؟ ربت على ظهري فرحًا بي:

- الأفلام غير الحياة التي نعيشها.
- وما الغرض منها؟
- للتسلية.
- يتسلون بالحقيقة أفضل؟!

تدخلت أمي حانقة:

- لا بد من الفلسفة.
- لا أفهم.

أشاحت ولم ترد، وانشغل أبي بنشرة الأخبار، هاجرت للمستقبل كلما طلبوا مني السكوت، أو تجاهلوا أسئلتي، أو ضاقوا بكثرتها، حلمت أن أكبر لأعرف كل ما يعرفانه ولا أحتاج لسؤالهما، أن يضطرا لسماعي كأي فرد كبير مثلهما، استمعت جيدًا لمفرداتهما؛ وحكاياهما؛ لأُحاججهما بلغتهما، وأفكارهما، ولم أفلح في إقناعهما بوجوب سماع حجتي حتى الآن.

الآنسة محروس

اشـــترى فوزي حمارًا ثانيًا بقرض من مدير مضـــرب الأرز، منع وقوفه في الحارة، أعطوا طفلًا قرشا لدخول الحوش ووضع السم على البرســيم، صــارع المســكين الموت لمدة طويلة، بكيت من أجل الحيوان المتألم، لا من أجل زوجة فوزي الباكية فقط.

لم يجنوا على فوزي وحماره فقط، بل صــنعوا مجرمًا صــغيرًا، نقشوا في عقله مبادئ الشر؛ وكيفية القتل.

لم يبكِ، حمل زوجته المغشــي عليها لداخل الحوش، تبعه أطفاله، وضـــعها على كومة من التبن؛ ســـحب نَبّوته أغلق الباب الصـــاج بالجنزير والقفل عليهم، ألقى نظرة على الحمار المحتضــر تتســاقط دموعه من الألم، وقف وســـط الحارة، نادى الأخوين الشـــربيني الجالسين يحتفلان بجريمتهما على سطح بيتهما يدخنان الحشيش، علا صـــراخ حريم البيـت في الحـارة، ألقين مقطوعـات الردح من المحفوظة والمؤلفة حديثًا، ذهبت محاولات طه ومرقص لمنعه ســـدى، لم يتوقف عن النداء، سمعته ينادي:

- الآنسة محروس وأختها.

سألت أبي:

- لماذا أنسة؟! هو ولد.

قال أبي غاضبًا:

- "شش".

سكتت على مضض.

العركة الأخيرة

اضطرا للنزول لمقابلته غير متزنين في سيرهما، أمسك محروس بمطواة في يده، وعلي بنبوت كاد يسقط من يده.

هجم رجب وعرفة عليه من الخلف، ناداهما طه باسميهما، انتبه فوزي وأطاح بهما في لفة دائرية بنبوته، ضربت رأسيهما معًا، سقطا مضرجين في دمائهما، ضربة سريعة على ذراع محروس طارت المطواة في الهواء وسقطت أرضًا، سمعنا صوت طقطقة ذراع محروس أثر ضربة ثانية من نبوت فوزي.

سقط علي وهو يطيح بالنبوت في الهواء لضرب فوزي، رفع نبوته، أسرعت أم محروس لمنعه، حال قصر قامتها دون ذلك، أزاحها صارخًا:

- باقي حق الحمار الأخير.

هوى بالنبوت على ساقي علي، رفعها ثانيًا ليهوى على رأسه، هرول طه، منعه، ألقت أم محروس بنفسها تقبل قدميه، لكي لا يقتل ولديها، تبعتها أم رجب.

خفض نبوته للأرض، عاد أدراجه وجبينه يتصبب عرقًا، جففه بكم فانلته، التفت للساقطين أرضًا وبصق، سار معه طه حتى الحوش، حل الجنزير، دلف إلى الداخل وأغلق خلفه.

رغم تقززي من بصقته، صفقت (لعمو فوزي) وكأني أشاهد فيلم كرتون، أمسكتْ أمي بكفي:

- عيب.

حدثت نفسها بصوت خفيض: " آخر زمن، طفلة لا تخاف؟!

لمَ العجَب من عدم جزعي من الدماء؟! هل نسيتْ متابعتي للحرب ومشهد جثث الجنود المصريين على شاشة التلفاز؟!

استيقظتْ حارة عبد الجابر في الصباح التالي، لم نجد فوزي ركس أو عائلته، هُجرَ من بيته ظلماً، خلا الحوش المغلق بالجنزير منهم.

هكذا دائما حال المختلف المتميز؛ شفافية قلبه تظهر سوادهم، بغضوا تجلي نور نظافته لإظلام قذارتهم.

انتظرت عودته، افتقدت وجوده، توقفت عن الخروج للشرفة، لم يعد هناك ما يستحق المتابعة.

❖ ❖ ❖

حُجة الحوش

بعد مرور شـــهر دخلت الحارة ثلاث عربات كارو تجرها أحصـــنة وبغال، حملوا أثاث أسرة مكونة من أربع أخوة شباب وأبيهم، ضخام، أقوياء.

ترجلوا من عرباتهم أمام بوابة الحوش المفتوحة، مخزن بداخلها الكثير من أجولة التبن، وحصـــانان وقف عرفة، ومحروس وما زالت ذراعه في الجبس.

دخل الأب، سأل باقتضاب:

- هذا حوش فوزي؟

رد محروس بتبجح:

- لا الحوش ملكي، باعه لي فوزي، والانصراف مسرعًا أفضل لكم.

رفع الأب صوته:

- معي حجة الحوش.

أشار إلى حصانين يأكلان التبن:

- خذ غذاءك؛ وإخوتك وانصرف.

دفعه محروس بيده، سقط أرضًا، هجم الأبناء عليهما، أوسعوهما ضـــربًا حتى أفقدوهما الوعي، حملوهما وألقوهما أمام بيتهما، دق الأب بنبوته وسط الحارة معلنا بلهجة صعيدية:

- هجَّرتوا فوزي غصـــبًا يا ظالمين، حرقتوا قلبه، ترك لكم البلد بما فيه، اشـــتريت الحوش، أما الموجود به من تبن وأحصـــنه؛ ملكي حلالي، تعويض عن الإهانة من "الواد الخايب أبو إيد مكســورة"، من له شوق في كلمة ينزل لي هنا وأنا أكسر رجليه، وأقطع لسانه.

دق الأرض بنبوته مرة ثانية، أكمل:

- أنا ســـأعيش هنا ولن أهاجر، ومن اليوم أي عربجي يقترب من مضرب الأرز، سأحرقه بعربته، وأطرده خارج البلد.

صدحت صرخة أم محروس من سطح منزلها:

- (يالاهوووي)

سقطت مغشيا عليها.

❖ ❖ ❖

سيرة الناس

بيت أم جميلة، ملاصـــق لحوش فوزي ركس، من طابقين، الطابق الأول تســـكنه أســـرة صـــغيرة من أخوين دائمي التحرش وافتعال المشكلات مع فوزي ركس، وأمهما العجوز، قليلة الحيلة، لم تقدر بعد وفاة زوجها على تربية ابنيها رجب وعرفة، فشـلا في الدراسـة، عملا مع ابني الشـــربيني كحمالين على عرباتهم الكارو، كثيرا ما سمعتها تدعو الله بهجرة دائمة إلى الآخرة لتستريح منهما.

وســـكنت أم جميلة الطابق الثاني مع زوجها وأولادها الثلاثة، مصـــطفى، ومحمد وبنتهما البكرية "جميلة"، إذا مشـــت؛ لا تترجرج مثل أي سيدة سمينة؛ بل تحركت كتل دهونها الصلبة في تتابع كنقر منتظم على طبلة، بخلاف نشـــاز صـــفير أنفاســـها، إثر الســـمنة والتدخين السلبي من زوجها، وجهها المستدير ضحوك دائمًا، لا تعبأ لأمر أحد، تؤمن أن البشـــر ما هم إلا مادة للحكي والنقد، أجادت فنون الغمز واللمز، ظننتها لا تنام، تقضـــي شـــئون بيتها، تفطر مع الجيران في الحارة أو متجمعات في شـقة إحداهن إذا هطل المطر، بعد وصلة طويلة من سيرة حارتنا ثم الانتقال لأخبار شارع ١٠ والحواري المجاورة وحتى شارع ميت حضر بل وعزبة الشال، تعتبر مرفهة عن نساء الحارة، أول ما يميزها سنتان ذهبيتان، وجهها الجميل الصبوح البشوش؛ هذا إن لم تنظر إلى عينيها ووشا بخبث أفكارها وسوء ظن منع عنها ما تعلمناه من حرمة أســـرار البيوت وتشـــويه سمعة خلق

الله، ترتدي دائمًا جلبابًا خلفيته بيضـــاء من قماش قطني خفيف بنصــف كُم يكشــف نصــف ذراعيها، لا يفرق جلباب عن الآخر إلا في شكل ولون النقش المطبوع عليه، ترتدي "شبشب" في الحارة، حافية في بيتها، تربط رأسها بـ(قرطة) بيضاء مزينة الأطراف بـ (الأوية).

زوجها طه؛ عامل في أحد المصانع؛ غريب الأطوار، لم أرَ ابتسامته ولو لمرة واحدة، لم يتنازل عن تقطيبة جبينه حتى ليلة زفاف ابنته، شــارد على الدوام، إذا تلاقت عيناه بعينيك بث في نفســك مشــاعر غضــب عميق، شــعره أبيض مشــعث دائمًا، صــوته متحشــرج، نادر الحديث، مدخن شــَرِه، متأمل لدخان ســـيجارته دائما وأبدًا، كأنه مهاجرٌ للا شـــيء، في أقل درجات الحرارة، لا يرتدي إلا اللباس الداخلي القماش والفانلة الداخلية البيضــاء، يجوب بهما الحارة كلها إن لزم نزوله لأي أمر.

أصـــرت أم جميلة على تزويج ابنتها على وجه الســـرعة للعريس (اللقطة) الميسـور ماديًا، ولم تهتم أنه يكبرها بعشـرين عامًا، حفاظًا عليها من قصـــة حب بريء مع طالب فقير ســـكن أمامهم في بيت للطلبة، حب تحدثتْ عنه حارة عبد الجابر كلها، وزادوا عليه قصـصًا مخجلة لم تحدث، قيل إن الله يرد لها ما تردده من فضائح خلقه.

❖ ❖ ❖

برج المراقبة

مع أذان الظهر يوميًّا تصـعد أم جميلة لبرج المراقبة الخاص بها؛ شـرفتها المقابلة لنا، مهام جسـام تنتظرها، تتفحص نظافة غسـيل الجيران، عدد الملابس الداخلية المنشـورة، وإن كان بها طاقم غريب عن أهل الدار، تشـمم روائح الطعام الخارجة من كل بيت، من غدا أو راح.. ولماذا؟ القبض على نظرة صـدرت من إحداهن لأحدهم أو العكس، وبعد العصـر تتولى مهام فضـحهما بين نسـوة المنطقة، كما فعلت مع أم ياسر وعم فوزي، راضية تمام الرضا عن نفسها وحياتها؛ مهاجرة لحياة الآخرة.

❖ ❖ ❖

الوقيعة

خرجتُ وأمي تحمل أختي الرضـــيعة من باب العمارة، مررنا أمام نسـوة الحارة الجالسـات أرضـا مجتمِعات برئاسـة أم جميلة، ونائبتها وأمينة سـرها أم ياسـر، غمزت الأولى للثانية، طبعت قبلة عنيفة على خدي؛ تقززت منها، اضـطرت أمي لانتظاري، أمسـح أثر القبلة، وهذا ما أرادته الرئيسة لتدير حوارًا:

- أحســــبكِ خرجتِ مع الأســــتاذ (أبويا) رأيته منذ دقائق في الشونة مع أخرى، حسبتها أنتِ.

أجبتها بسرعة:

- لا طبعا (بابا) في الشغل منذ الصباح.

قابلتْ انفعالي بضحكة رقيعة:

- والنبي هو.

وكزتني أمي في كتفي، كي لا أرد، ابتسمتُ لها:

- لا بد أن نظرك خانك.

سـحبتني أمي من ذراعي، صـرخت لأسـجل اعتراضـي وأن أبي في عمله، طلبت أمي مني السكوت متهمة مجلس النسوة بالكذب، تعجبت أن حلفت بالنبي كذبا، شـكوت لجدتي، مندهشـة من قسـمها الزور، دعت عليهن، غاظني ضحك أبي وخالاتي من انفعالي.

❖ ❖ ❖

شكوكو

نادى بائع لاستبدال زجاجات مستعملة بدمية على شكل شكوكو، مونولوجست خفيف الظل، قدم مونولوجات غنائية كوميدية، اشتهر بعباءته المخططة، وحزامه الأبيض حول وسطه مثل السفرجية، وطرطور مثل الأراجوز على رأسه، ألقيت دميتي، طلبت النزول لشرائها، أعطتني أمي نقودًا، رفض البائع وكان ذا عاهة أي نصف عاقل، ردد:

- (هات إزازة، خد شكوكو).

صعدت باكية كعادتي:

- أريد زجاجة.

أفرغت أمي زجاجة الخل خصيصى للتخلص من (الزن)، كانت من الزجاج خضراء اللون، تغلق بسدادة من الفلّين، لا يفرقها عن زجاجة السبرتو إلا ملصق ورقي مكتوب عليه الصنف.

هبطت مسرعة، لم أجده، انصرف البائع، بكيت حتى نمت، اجتهدت أمي الفنانة في صنع شكوكو أفضل، لم أقتنع، احتفظت بالزجاجة الفارغة، طال الانتظار، عاد البائع بعد فترة طويلة، أخيرا حصلت عليها، قارنتها بصنعة أمي الأجمل، رميت شكوكو وعدت لفن أمي.

❖ ❖ ❖

(بالفلاحي مونِه)

في الزمن الجميل لا بد من اسم دلع مختلف أو مقتبس من الاسم الأصلي، وكان حظي في اسم منى، اعتدت عليه ثم كرهته، بسبب منى ابنة المنتجة آسيا، حملت نفس الاسم في تمثيل دور سمج مكرر، تحب كمال الشناوي دائما ولا يحبها، وتدبر المكائد لحبيبته.

أما عائلتي العزيزة في طهواي ينطقونه (مُونه)، خضت حربًا ضروس من شجب وإدانة لتحريم ندائي به ولم يستجب أحد إلا الشباب بعد سنوات طوال، واستمر الكبار بمناداتي به، صرت أحبه بعد ثلاثينياتي، يذكرني بأيامي الخوالي، ليتها بقت وبقوا ولينادوني بما شاؤوا.

❖ ❖ ❖

جيفارا

نعتتني أمي بالشريك المخالف، والسبب واضح، غضبتُ لذلك لأنها قصدت به الذم، ورأيت أنه حقي أن أشارك في الرأي، أتفق أو أختلف، سألتها:

- لماذا لا تأخذون برأيي، هل لا بد أن أوافقكم؟!

شكتني لأبي، لأني أردت الكلمة بالكلمة، وكان ردي، أني لم أنطق عيبا، غضبت أمي أكثر، حاول أبي ترضيتها:

- لا تغضبي، هي مثل (بركات أفندي).

افتخرت بالتشبيه، أنا أشبه بركات أفندي بشخصيته الاستثنائية شكلًا ومضمونًا، يمتلك شجاعة الاعتراض والرفض لما لا يعجبه؛ بخاطري هو (جيفارا) مثال الثورة والحرية.

❖ ❖ ❖

الأفندي بركات

رفض أهل القرية طريقته وأفكاره، تفرد غير مقلد لأحد، تحدث الفصحى، لم يفهموه، لم يتنازل عن ارتداء الطربوش والإمساك بمنشة في زمن خلا منهما، حركها يمينًا وشمالا طول الوقت؛ يرتدي بذلة إذا ذهب إلى عمله الذي لا أتذكره، وفي الزيارات الرسمية، أو چاكت البذلة فوق الجلباب مع الطربوش في القرية.

رفض كلمة كبار البلدة وعلى رأسهم العمدة عمي حسن الوكيل، وهو ممثل صوت كل رجال القرية، لشدة احترامهم له دون خوف ظاهر لا ينفي وجوده كما بالأفلام القديمة، لا تسمع إلا "صح يا عم، أو صح يا خال" وإن استطعت أن تزيد بما يؤكد كلام الكبير كان لك المزيد من التقدير، تلك هي معايير الاحترام؛ وإلا اعتبرت مارقا مثله.

التزم بركات أفندي بمنهج الحجة والمنطق، ورفض الطبقية العائلية في الرأي والصوت الواحد، لذلك لم ينل إلا التندر بطربوشه ومنشته وهيئته وطريقته المميزة في الحديث وفكره.

سابقًا عصره في الديموقراطية غضب ذات يومٍ من مجلس حين توافقوا على أمرٍ لا يعجبه، قال:

- إما أنا مجنون أو إنكم مجانين.

رد أحدهم باستحالة جنونهم وهم جمع كبير على رأي واحد وهو العاقل الوحيد المخالف، ما أحزنني أنه بعد هذا اليوم انزوى عنهم، لا يحدّث أحدًا ولا يشترك في مجلس، أثمرت هجرته وإصراره على مبادئه عن أبناء مثقفين، يشغلون مناصب محترمة.

ناداني أبي، باسمه، قلت له مفتخرة:

- يشرفني أن أكون على مذهبه في رفض الحياة بالتبعية، لا تنسَ أنّ أحدًا أبدًا ناداه بغير اقتران اسمه بالأفندي، دليل توقيركم له، على غير ما تظهرون.

عاش رجال القرية في ديكتاتورية مقنعة؛ عبيدًا لمنهج القدامى، والعصبية القبلية، وعاش أبيًّا رافضًا الانقياد، صاحب رأي ومبدأ، دفع من روحه ثمن فكرها المتقدم، انطبع اسمه في نفسي؛ مصطلح يعني الثائر، المهاجر لحريته؛ مسكين يا كل بركات أفندي.

❖ ❖ ❖

بيت الطلبة

بنايتنا المكونة من ثلاثة طوابق، مقابلها بيت أم جميلة، ناصيتنا تقاطع حارتنا مع حارة أخرى، على الناصيتين المواجهتين بعد التقاطع عمارة من ثلاثة طوابق في مواجهة بيت أم جميلة، سكنها مجموعات من الطلبة المغتربين ممن درسوا في جامعة المنصورة، تغيروا من عام لآخر، أغلبهم لا هَمّ لهم إلا متابعة فتيات الحي ومشاغلتهن من طرف خفي.

مهاجرون عن واقعهم إلى ما تتوق له نفوس الشباب من قصص حب وجنس، ندرة منهم مهاجرون إلى مستقبل أفضل.

❖ ❖ ❖

البخيل

محل عم مرقص؛ بقالة من النوع التقليدي في الدور الأرضي أسفل سكن الطلبة، يبيع حلوى الأطفال وملَبِّس ملون (براغيث الست)، يناوله لك في يدك دون عبوة، أو الملبس الأبيض بالحمص أو السوداني؛ ملفوف في قرطاس من ورق كتب المدارس القديمة، أما المغلف فكانت شوكولاتة وبسكويت كورونا، بسكويت ماري السادة للشاي أو كغذاء مساعد للرضع (بديل السيريلاك) وبعض البونبون، بخلاف السبرتو الأحمر لزوم سبرتاية القهوة، الزيت السائل والمعبأ، صابون الغسيل وغسيل الأواني، لوف غسل الأطباق وسلك (الألمونيا) لجلي الأواني، وهو ما يستخدمه المرفهون، أما العامة فيأتون بقطعة من الطوب الأحمر، تُدق وبخشونتها تنجلي الأواني، أما الشاي والسكر والأرز؛ كان من الممنوع تداولهم خارج نطاق السلطات، يصرفون كحصة لكل فرد على بطاقة التموين، للتمكن من توفير الغذاء للجيش وقت حرب الاستنزاف.

عم مرقص من المتصالحين جداً مع الحياة إلا في النقود؛ مهاجر دائمًا إلى درج الإيراد، ليكمل بناء عمارته غير العادية آنذاك لأنها مكونة من خمسة أدوار، إن رأيته دون معرفة ستشفق عليه من ملبسه؛ معطف قديم أسفله جلباب متقيح، أحالتهما البقع المتصلة للا لون، فاح منهما رائحة الزيت الزنخ ممزوج بعرق من لا يستحم، انتعل حذاءً قديمًا متهالكًا، داس بكعبه على خلفيته؛ أحاله إلى (شبشب).

بوتاجاز أمي

طهتْ أغلب الأسر طعامها على وابور الجاز، تمر عربة الجاز يوميًّا يجرها حمار أو حصان، مميزة بجرس مميز، يحمله البائع المبلل من شعره لأخمص قدمه بالجاز، لا ينقصه إلا عود كبريت مشتعل؛ لينفجر بالعربة.

القِلة في الحارة من يملكون "بوتوجاز"، أغلبها المسطح دون فرن، بالنسبة لهم كانت أمي من المسعدين الذين امتلكوه بفرن في جهاز عرسها.

وبحق الجيرة وشطارة أمي المثقفة؛ طلبت أم صبري، عددًا من صواني (مكرونة بالبشامل) التي سمعوا عنها حديثًا، تزين بها سفرة حفل الخطوبة للابنة الوسطى، فأهل الخطيب من علية القوم، اضطرت أمي للعمل لساعات طويلة، والاستعانة بإحدى خالاتي لصنع عدد الصواني الكبير المطلوب لعشاء الحارة، بالإضافة لصواني الجلاش الملفوف على لحم مفروم؛ الغريبة عنهم.

نادرًا ما تمر عربة أنابيب البوتاجاز في الحارة، يضطر أبي لشرائها من منطقة جدتي وحملها في عربة حنطور، ونحضر لجدتي الجاز لغلي الغسيل الأبيض على الوابور، في إناء من الألومنيوم يسمى (بستلة).

❖ ❖ ❖

الأشرار

تتسع الحارة أمام بيت أولاد الشربيني، المبني على مساحة كبيرة والمكون من طابقين، ممسكًا بزمام الناصية المقابلة لنا بعد التقاطع، الطابق الأول لإقامة ستة أحصنة، ومخزن طعامهم، الدور الثاني لسكنهم.

أسرة مكونة من أم وسبعة أبناء، ذَكران، علي الصغير أعزب، محروس الكبير متزوج، وخمس بنات، منهن ثلاث متزوجات في بيوت أخرى، متيسرين الحال، يملكون خمس عربات كارو كبيرة، كثيرو العداء لخلق الله، بسبب أو من دون سبب.

غطت أساور الذهب نصف ساعدي الأم، خاتمان في كل يد عديما الجمال رغم ضخامتهما، غطت قواطع أسنانها العليا بغطاءٍ ذهبيّ مع عدم تضررها، فقط كتحدٍّ لتجرأ أم جميلة بتركيب سنتين ذهبيتين، يلف عقد ضخم يسمي (بنطنطيف)، اللغد المتدلي من ذقنها ملتصقا بصدرها، وقفاها، تدلى حلق من أذنيها مستدير معلق به كرات صغيرة، سمراء، أسطوانية لسمنتها المفرطة، لا تستطيع التفريق في ملامحها عند الفرح والغضب، إن كانت تلاطف أحدًا أو تلعنه، لا يمكن لبني آدم أن يحبها إن تأمل نظرة عينيها، شعرها

المشعث خارج غطاء رأسها (القرطة) جلباب واسع يناسب قوامها البرميلي، إذا رأيتها تأكل تتخيلها حيوانًا متوحشًا جائعًا منذ أيام.

بناتها لا يرتدين من الذهب إلا حلقًا في الأذن، لا تتزين الفتيات بالذهب، كما العيب في تهذيب الحاجبين، وإلا تتولى أم جميلة وأم ياسر فضحها بلا هوادة، إلا أخوات محروس، يجلسن بالمرآة أسفل منزلهن مع الماشطة عيانًا جهارًا، يطرقعن اللبان، ولا تنبث إحدى الكريهتين ببنت شفه تخصهما.

❖ ❖ ❖

عمل سفلي

نادرًا ما ترى أثناء النهار ملامح محروس أو علي، التراب أو الدقيق يغطيهما دائمًا، حفاة، يرتديان نفس الملابس المهترئة، هاجرا للمتعة والشهوات من مال ونساء وحشيش، في حين هاجرت الأم وبناتها لعالم الغيبيات والسحرة، إن مرض أحد الذكور اجتمعت الأم وبناتها لدى أحد ضاربي المندل، وبعلمه الغزير العلوي والسفلي يعطيهن أوصاف من تجرأت وحسدت، أو نهشتها الغيرة فصنعت له عملًا سفليًّا أمرضه، وطريقة التصرف مع المجرمة حسب قوة عائلتها، لو من عائلة ضعيفة لقنوها علقة ساخنة قد تتسبب لها في عاهة، أو رقدت لشهر وأكثر في سريرها، أما إن كانت عائلتها قوية، دفعوا الكثير من المال لإجراء عمل سفلي مضاد يمرضها، وردًّا لكيدها يقيمون حفلًا كبيرًا تحت أي مسمى؛ ليلة لمولد النبي، نصف رجب، عاشوراء، حتى لو لم يكن ميعاده ووقته، يحيي الليلة أشهر منشد، تتناوب نساء العائلة الزغاريد المتبوعة بضحكات رقيعة في مكبر الصوت، تذبح العجول، تقدم فيه الفتة ويدعى له كل الجيران والأحبة عدا أسرة المتهمة، وقد تكون مدعوة في الحفل السابق، لكن ما باليد حيلة؛ تلك أوامر الأسياد، أنوار عظيمة تحيط بالسرادق الضخم في الباحة المقابلة لبيتهم، لا تُطفأ قبل ظهور ضوء النهار.

أو يقيمون "زار" تشـــرف عليه أقوى كودية في المنصـــورة، رأيت ذكورهم يطوحون نصـــفهم الأعلى يمينًا ويســـارًا على دقات الدفوف، غناء غير مفهوم، ونداء على أسماء غريبة، منهم من صرخ بهيستريا، أو تشنج كالمصروعين.

ارتدت النســـاء جلاليب وأغطية رأس بيضـــاء في جهة أخرى من البيت، يتقافزن رقصًا، حول عمود قصـير يتوسـط دائرة، مغطى من الأعلى للأسفل بقماش أبيض، يتعالى صـراخهن ويتساقطن الواحدة تلو الأخرى.

ســـألتُ أمي عما يوجد أســـفل القماش الأبيض، وعن ســـبب صـراخهن، وبمن يستغيثون، ولماذا يتساقطون؟ هل هم مرضى؟ على من ينادون؟

كانت إجابتها مقتضبة، لم تشبع شغفي:

- مرضى بالجهل، نداؤهم كفر.

ارتعدت للجملة الثانية، امتنعت عن مشاهدة الزار التالي.

❖ ❖ ❖

(نينا) أم صبري

الشقة الوحيدة المسموح لي بدخولها في الحارة هي شقة (نينا أم صبري)، في الدور الثاني أسفل شقتنا، يسكنها أربع نساء ورجل، أم أرملة وبناتها الثلاث؛ فادية الكبيرة، وسلوى الوسطى الأجمل بين أخواتها، وزينب الصغرى والأقل جمالًا، ووحيدها صبري، أنادي من أعلى السلم لأني لا أطول الجرس:

- نينة أم صبري، افتحي الباب.

تفتحه بابتسامة تظهر أسنانها المتهالكة، أدخل حيث تجلس مع بناتها الثلاث، الوحيدات من الحارة في مراحل تعليم متتالية من التعليم التجاري والصناعي، عائلة مهاجرة عن آخرها؛ جاؤوا من مركز أجا إلى المنصورة لالتحاق الأخ بالجامعة، هاجرت الأم لحصول ذكرها الوحيد على الشهادة الكبيرة، تحقيقًا لحلم المرحوم أبيه، وللحصول على زيجات محترمة للبنات؛ من رجالٍ ذوي مال؛ كراهة للفقر الذي حط عليهم بوفاة الأب.

عاش صبري في هجرته الدائمة إلى حلمه بمستقبل أفضل، عمل في مضرب الأرز كعمالة مؤقتة صيفًا، لشراء ملابسه وكتب الجامعة، ولفافات التبغ.

لمحتُه من شرفتنا يكفف دموعه، تعجبت، سألت أم صبري:

- الرجال الكبار يبكون؟

- لمَ السؤال يا (أروبة)؟

- رأيت (أونكل) صبري يبكي.

أجهشت بالبكاء، تبادلت الحديث هي وبناتها وهي تجهش بالبكاء، قُلنَ لي قصة وقوعه في ملحمة العذاب الأزلية للشاب الفقير، أحبَّ زميلته ذات الجمال والمال، لم يجرؤ على الهجرة لها، لم يشفع له علمه أو طوله ووسامته، عاش حزينًا بعد زواجها في السنة الثانية بالجامعة، لم يهاجر لأي حبّ بعدها، رغم هجرة كثيرات من شابات الحارة له في أحلامهن.

كتمتُ سره حتى شاهدت فيلم "البوسطجي"، سألت:

- لماذا قتلوا جميلة - بطلة الفيلم -؟

زفرت أمي لسؤالي المربك:

- لأنها قليلة الأدب.

- لماذا؟

متشاغلة بتغيير حفاض أختي؛ حاولتِ التخلص من أسئلتي:

- الحب عيب.

حركت رأسي دلالة الفهم العميق:

- إذًا (نينه) أم صبري بكت لقلة أدب ابنها.

انفجرت أمي بالضحك.

❖ ❖ ❖

عيد ميلاد البلطجي

زارتهن زوجة محروس الشربيني لاستشارتهن والأخذ بنصيحتهن كمتعلمات الحي في مسمى وسببٍ لحفل تهتز له المنطقة كلها، بعد أن طال مرض زوجها واستنفدوا أسباب الحفلات، وعلى غير العادة طلب الساحر دعوة مَن حدّدهم وصفًا، لسقيهن العمل السفلي المجهز لهن، لرد كيد الأعادي.

كنت جالسة فوق السفرة، أتابع (نينة) أم صبري وهي تصنع القهوة فوق السبرتاية للضيفة، سألتها:

- هل احتفلتم بعيد ميلاده؟

سألتني الزوجة:

- أي عيد الكبير أم الصغير؟

لم أفهمها، انفجرت الفتيات بالضحك.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

نقطة بوسبوس والحشيش

عرفت حارة عبد الجابر أن ثمة احتفالًا في ذكرى مولد بشـــري خلاف المولد النبوي يســـمى عيد ميلاد، أقامت أم محروس أضـــخم سرادق حدث، سهر فيه كل سكان المنطقة عدا أسرتي وأسرتيْ صبري وفوزي ركس، أبدعت بها فرقة الحاجة (بوســـبوس) الشـــهيرة بالمنصورة، وراقصاتها، كان صوتها جميلًا، يشبه صوت الفنانة وردة، ارتدت ثوبًا طويلًا بكم وشـعرًا مسـتعارًا لإخفاء شـعرها بعد رجوعها من الحج.

انهال النقوط عليها، دفعوا (للحاجة) في أثناء غنائها الأوراق النقدية كاملة أي خمســـة وعشـــرة جنيهات، تبارى رؤســـاء المهن في إغراق الراقصات بالأوراق النقدية الصغيرة (فكة) يتم تفكيك العشرة جنيه إلى أرباع جنيهات ورقية ثم نثرها على رأس الراقصة.

دخنوا السـجائر الملفوفة، المحشـوة بما طاب من الحشـيش؛ غطت الحارة سحابة ثقيلة من الدخان الأزرق، ارتمى المساطيل، صرخ وهلل المخمورون، رقصوا، تقيؤوا خلف السرادق.

تم لأم محروس ما أرادت بســـقيا العمل المضـــاد لأعداء مخيلتها، ســـعدت كثيرًا بفقرات الحكي عن الحفل وتكاليفه لأحبابها المؤقتين، حتى يتهمهم فاتح المندل أو يصف ملامحهم.

في الصـــباح، الكبار نائمون، جمع أطفال الحي أعقاب الســـجائر (سـبارس)، دسـوها في جيوبهم، قلبوا زجاجات البيرة والخمر الرديء فوق أفواههم المفتوحة متحينين لكل قطرة باقية.

❖ ❖ ❖

أخواته البنات

هاجرت فادية من بيت أمها وفقره، إلى زوج بمؤهل أقل منها لكنه يملك المال، رأيتها باكية في عرسها؛ عايرتها أم ياسر بلون العريس الأسمر الغامق، أحبته فيما بعد لطيبة قلبه وحسن خلقه.

هاجرت سلوى الجميلة، لحلم فارس الأحلام الآتي ليخطفها على حصانه الأبيض حيث قصره العامر، رفضت الكثير من الخاطبين أمثال زوج أختها، بذلت كل جهدها لنيل حلمها، تعلمت التفصيل لترتدي ملابس رخيصة أنيقة، ذاكرت للالتحاق بمعهد بعد الثانوي التجاري، قدمت للعمل بكل الوظائف، حتى نالت حلمها، بخاطب وسيم؛ ذي مال، أهدى لها (شبْكة) مكونة من أربع أساور وعدد من الخواتم وعقد قيّم، لم تكترث كثيًرا لما يوقعه بها من أذى وضربها إذا اختلفا.

وهاجرت زينب لأحلامها بقصص حب عبد الحليم حافظ في أفلامه، قبلت تكملة حياتها في الفقر؛ لأجل حب اتضح عدم كفايته فيما بعد، عادت لبيت أمها خائبة الأمل تحمل على كتفها طفلًا، وتطاردها نساء الحارة بلقب مطلقة.

❖ ❖ ❖

صباح حارتنا

نزلت وأختي الأصغر نتبارى في القفز على الدرج، كل درجتين معًا، خلفنا أمي تحمل أختي الرضيعة، أفسحت لصبري، مر مسرعا، في قفزة خمس درجات، سبقنا للخروج من بوابة العمارة، ألقى التحية لفوزي، تبعناه وأختي:

- صباح الخير(عمو) فوزي ركـ..

ابتسم؛ رد التحية لنا وصبري، دعا لنا بالنجاح، خرجت أم ياسر، رفعت صوتها بالدعاء لي وأختي، بينما تنظر إلى فوزي وأصابعها تداعب خصلات شعرها، أشاح بوجهه للناحية الأخرى متشاغلًا، خرجت زوجته فجأة، اضطرت لإلقاء التحية عليها، احتقن وجهها من الغيرة على زوجها، لم ترد، وردت تحية أمي؛ دعت أن يبلل ريقها بأخ لنا، سرت الغيرة في روحي، ما لنا؟ لا نحتاج لأخ، هو بشر مثلنا؛ غضبت منها، ابتسمت أمي بسماحة.

انتصبت سوريا من انحناءاتها؛ تكنس الشارع أمام بيتها، ألقت على صبري نظرة حانية، انتظرت التحية، لم تنلْها، ثبّت عينيه على الطريق أمامه، رأيته متعمدًا التجاهل لعينيها الوالهة، رأيته حزينًا لأجلها، ها هو يسقيها ما شربه من مر تجاهل حبيبته، سوريا لا تناسبه، كما هو لا يناسب من عشقها، أظنه صفح عن رفضها له.

❖ ❖ ❖

شوكولاتة وميني جيب

ناولت عم مرقص ثمن قطعتي شـــوكولاتة كورونا، التفت عائدة ممسكة بيد أختي الصغرى، كانت سمراء، نحيفة، سمعت إحداهن من مجلس أم جميلة، تسأل عن عمري، أجابتها أم ياسر العالمة بالأمور:

- خمس سنوات.

شهقت السائلة ناظرة لطرف ثوبي (الميني جيب):

- ما لها طويلة؟! هذا ورك خمس ســـنوات؟! ابنتي ربعها، أكل وتغذية، انظري إلى شعرها، تراها تأكل طعام أختها السوداء.

مصمصت شفتيها بحسرة، عدت باكية لأمي، لأني سمينة، أخفت انزعاجها خوفًا من الحســـد، شـــرحت أني طويلة مثل أبي، وزني متناسب مع طولي، أبناؤهم غير أصحاء، ضعاف تسكن الميكروبات أجسادهم.

بدت أختي حزينة، ولم تبكِ، مما أثار حزن أمي، وكأنها علمت بتأثر نفسيتها بما قيل؛ وقد حدث.

صـدقت مخاوف أمي، انتشـرت بثور كبيرة برأسـي، بأمر الطبيب اضطرت أمي باكية لقص شعري الطويل، صنعت أمي منه (باروكة) كنت أحزن كلما رأيتها، حقنتني أم خليل بالبنسـلين، عشـت مهاجرة لشكلي بشعري الطويل، توقفت عن النظر في المرآة، حتى طال شعري،

ولم تتركه أمي مفرودًا مرة ثانية، ولم ألبس (ميني جيب) في الحارة أبدًا.

هاجرت أمي بروحها أكثر للسويس، وكأن الحسد يعيش في المنصورة فقط، أخبرتها جدتي بموقف مشابه أمرضها، حسدتها قريبة لهم:

- الحسد في كل مكان يا ابنتي، أنت فقط تشتاقين للسويس.

-

❖ ❖ ❖

الفراخ المتهنية

تلقت دجاجات أمي التطعيمات، وأفضـــــل طعام، من سمك بالأرز مطهي مع الكراث، نظافة شـــاملة وتعقيم من متخصـــص لعشـــة السطح، كانوا تسعًا وتسعين دجاجة، ذوات ألوان جميلة لم أرها منذ تركنا المنصـــورة، لفترة طويلة أمتنعت عن أكل الدجاج، رفضـــت ذبح إحداها ذات لون أسود مُرَقَّط بأبيض، منعتني أمي من اللعب بالعجلة ذات الثلاث طارات فوق السطح كي لا أرى الذبح.

بينهم ديك أضخم وأطول من المعتاد، مخيف، شرس، صياحه عالٍ عن اللزوم، هاجم من يتهور ويقترب من العشة، نقر لحم ساق أختي، حتى ســال دمها، كأن أصــابه ســعار، بتنا نخشــى الصــعود للســطح، أسميته مجدي على اسـم طفل من الحارة؛ شـقي كريه سمين، تعاون أبي مع جارنا صـــبري، للإمســـاك به، تولت أم صـــبري ذبحه، أكلت أختي من لحمه بزيادة عن طاقتها؛ انتقامًا منه.

❖ ❖ ❖

أم ياسر اللعوب

سكنت أم ياسر في الطابق الأرضي، أسفل شقة أم صبري، نموذج مثالي للعوب في الدراما المصرية، طويلة مفرودة الجسد، عريضة الأكتاف، لم أرها دون كُحْل المرود الأسود الثقيل، لازمتها غمزة بعينها اليسرى، شعرها مفروق، مثبت الخصلات على جبهتها بالعديد من مشابك الشعر (بنس) الملونة بألوان فاقعة، لفت خصلتي فوديها حول أذنيها، أسدلت شعرها الطويل المصبوغ بالأكسجين خلف ظهرها، ربطت فوقه وشاحًا صغيرًا حريريًّا ملونًا (قرطة) مزينة بـ (الأويه)، تزينت بحلق كبير مخرطة، ملطخة الشفاه والخدود دائمًا؛ بلون أحمر فاقع، كل جلاليبها زاهية الألوان، مصبوغة الكفين والقدمين بالحناء، أظافرها غير مقلمة، متسخة، تحمل بقايا طلاء.

بعينيها كراهية وحقد كبير للبشر، شعرته ولم أفهمه، انتابني خوف دائم من نظراتها، مهاجرة بطول حياتها لنظرات الإعجاب من الذكور، ولجلسات النميمة وأفراح المنطقة ولياليها الملاح ودقات الزار، تتزين؛ ترتدي ثوبها المطرز ب (خرج النجف)، أو جلباب الزار، تغادر تاركة أطفالها الثلاثة حفاة، متسخين، يرتعون في الحارة، حار معها زوجها عم مجلي، للاهتمام بالبيت والأولاد، بالخناق أحيانًا، والضرب كثيرًا، دون جدوى.

فهم كراهيتها لنحافته وقصر قامته، قسماته الحادة الغاضبة، شعر بالضآلة، فهاجر لأصدقاء القهوة، يدخنون الشيشة المغمسة

بالحشيشة بعد العودة من العمل إلى منتصف الليل، ملازما الصمت داخل البيت.

استغلت الفقر المدقع لإحدى قريباتها كثيرة الأولاد، أقنعتها بتبني ابنتها المراهقة سوسو بحجة تخفيف الحمل عن الأم، وتجهيز الابنة للزواج، وكله لوجه الله، حملتها كل أعمال المنزل، كرهتها أكثر لأجل سوسو المسكينة، لطالما سمعت صوت ضربات (شبشبها) تهوي على جسدها الضئيل، لأقل خطأ في تنفيذ أوامرها.

دارت أحاديث كثيرة؛ في الحارة، عن غرامياتها، أهمها علاقتها مع محروس، حكت شاكية زوجته لأم صبري وبناتها عن علقة موت نالتها من زوجها بعد مواجهتها له بعلاقته مع أم ياسر، وتأكيدها أن هناك من رآهما ليلًا في غرفة خزين العلف، أقسم عليها بالطلاق إن أبلغت مجلي بما رأوه.

حكوا غير عابئات بالطفلة الجالسة بينهم، ببساطة لأنها طفلة لا تفهم ما يقولون! تبرأت أم جميلة من أفعال صديقتها اللدود أمام نسوة الحارة، والدعاء على بنات الحرام من يتكلمن على الشريفات، إن اشتكت لها أم ياسر كلام النسوة.

تنافست أم ياسر مع أم جميلة في مراقبة سكان الحارة؛ للحصول على سبق الأخبار والفضائح، وما أكثرها في المناطق الشعبية الملتصقة المنازل، شاركتا في تدمير حياة الكثيرات، أصعبها على قلبي؛ خراب بيت أم خليل.

مأساة أم خليل

إذا ذكرت أخلاق سيدات البيت الفضليات ذكرت أم خليل، وجهها مريح، طيب، تشع النظافة من ملابسها وأولادها وبيتها وكل ما يخصها، مهاجرة للغد في رحلة مع تعليم أولادها ومستقبلهم، عاشقة للبناء، حولت غرفتين إلى عمارة كاملة.

زوجها عامل بسيط، لا تلاحظ أي أثر له في حياة أولاده.

لمساعدته في نفقات أولادها الخمسة امتهنت حقن المرضى وأعمال التمريض بمقابل مادي بسيط، تعلمت أصول المهنة من أبيها الممرض بأحد المستشفيات.

تجوب المنطقة كلها صباحًا ومساءً بسرنجة زجاجية ضخمة، وعلبة حديدية لامعة مبطن قاعها بالقطن تحوي كل مقاسات إبر الحقن، وعلبة مخصصة للغيار تحوي صبغة اليود والميكركروم للتطهير والقطن والشاش وأنبوب مرهم أسود اللون(مرهم إكتيول) خاصة للدمامل والخراريج، تقوم أسرة المريض بغلي السرنجة والإبرة المناسبة في الماء قبل الاستخدام لتطهيرها من دماء المريض السابق، أو يلجؤون إليها إذا لم يفلح ربط قشر بصلة أو العجين الممزوج بالسكر في فتح الخراج أو الدمل.

هذا إلى جانب عمليات الختان لأولاد وبنات الحي، أعطتني عددًا كبيرًا من الحقن المؤلمة بسرنجة خاصة بنا، اشتراها أبي حرصًا على صحتنا.

استطاعت إدارة حياتها بمهارة للأفضل، أكملت بناء الدور الثالث في بيتها الملاصق لبيت أم جميلة، في الحارة الجانبية، مواجه لدكان عم مرقص، سجلت الأرض والمباني باسم زوجها، اشترت له دراجة نارية في حدث عظيم في الحارة، وأول من اشترت تلفازًا بعدنا، ثم غسالة كهربائية وثلاجة و..

تطوعت للعمل الخيري للجرحى العائدين من حرب الاستنزاف، ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣، أشاد الجميع بأعمالها، ما أصاب أم ياسر وخليلتها أم جميلة بالضيق، زوجها محب لها، وزوج كل منهما يكرهها، يشيد الناس بسلوكها، وأهل الحارة يتجنبانهما أو يعاملنهما تُقْية، تطوعتا بالوقيعة، ودس البغض في نفس زوجها بمساعدة محروس ورجب، اتهموها بالتكبر لامتلاكها المال، نصحوه بكسر شوكتها بالزواج من أخرى قريبة لأم ياسر.

تصاعدت الخلافات في البيت الهادئ، غادر الزوج البيت لأيام، عاد عصر يوم متأبطا ذراع عروس صغيرة، طرد أم خليل وأولاده بما عليهم من ملابس أمام كل الحارة، بكيتُ لبكاء المغدور بها، بكى فوزي وزوجته لأجلها، دعاها لدخول الحوش حتى تهدأ، سألها أن يوصلها لذويها، صرخت أن لا أهل لها، أطفأت أم ياسر نار حقدها بزغرودة طويلة أطلقتها لحظة مرور المطرودين أمامها، بعدها لم ألقِ السلام عليها أو على أم جميلة حتى غادرنا المنصورة.

❖ ❖ ❖

حرب الاستنزاف

اخترقت طائرة فانتوم عباب السماء، دوي صوتها المخيف، استيقظنا على أصوات القذائف تقصف مطار (شاوه) العسكري؛ المجاور لمدينة المنصورة، فزعنا، حمل أبي وأمي أختيّ الصغيرتين، أمرني بالنزول أمامه للدور الأرضي، انفجرت الطائرة، فسخ ضغط الهواء متراس نافذة السلم، فُتِحت على مصرعيها؛ أحدثت صوت ارتطام قوي بالحائط، بدا المشهد قريبًا، وقفتُ متجمدة على السلم أصرخ، سحبني أبي من كتفي مندفعًا إلى شقة أم صبري، احتوتني بين ذراعيها، سقتني الماء، قرأت بعض القرآن في أذني حتى هدأت، أصبح صحونا المبكر على صوت صفارة الإنذار طقسًا يوميًا، لنبقى في شقة أم ياسر حتى الحادية عشر ظهرًا أو أكثر.

❖ ❖ ❖

الشهيدة ماما سلوى

جلستُ ألعب بعروستي، عاد أبي من العمل مسود الوجه حزين، قبل حل رابطة عنقه، أبلغنا بقصف الأعداء لطائرة مصرية، واستشهاد (ماما سلوى) المذيعة سلوى حجازي؛ رائدة برامج الأطفال في التلفزيون المصري، بكيت حزنًا للمرة الأولى في حياتي وتذكرت أن جدي لم يستيقظ من نومته الأخيرة حتى الآن، لم يعد كما كنت أتوقع، شرح أبواي حياة الشهيد السعيدة في الجنة، استمر حزني طويلًا، تخيلتها تمشي بين أشجار جميلة تحت ضوء بدر مكتمل، تأكل فاكهة من الشجر وتداعب فراشات، تمسك بباقة ورد بلدي بيدها، خفت بعدها أن أحب (ماما نجوى) المذيعة نجوى إبراهيم؛ خوفًا من الحزن إن ماتت.

❖ ❖ ❖

مدرستي بحر البقر الابتدائية

قصف الأعداء مدرسة بحر البقر بقرية بحر البقر بالشرقية خلال حرب الاستنزاف، تناثرت أمخاخ التلاميذ وأمعاؤهم على حقائبهم وتراب فناء المدرسة، ثاني مأتم جماعي لمصر، بعد عبد الناصر، الكل بكى، خيم الحزن على القطر كله، بكيت للمشاهد المذاعة وصور الصحف، خصوصًا وأن الشهداء في مثل سني.

في ذات اليوم، قذفوا أكياس النابالم على المناطق السكنية في المنصورة وضواحيها، بقينا تحت سلم مدرستي في الدور الأسفل حتى انتهاء الغارة، ثم أوقفوا الدراسة.

تنتاب قلبي غصة في ذكراها وكلما سمعت أغنية فؤاد حداد المشهورة

محافظة الشرقية

مدرستي..

بحر البقر الابتدائية

كراستي..

مكتوب عليها تاريخ اليوم

مكتوب على الكراس اسمي

سايل عليه عرقي ودمي من الجراح اللي في جسمي

ومن شفايف بتنادي

يا بلادي.. يا بلادي.. أنا بحبك يا بلادي

يا كل واحد في الملايين

بنت وولد طلوا وشوفوا

درس النهاردة يا مصريين

كتبت ع التختة حروفه

أدي ال "أ" وأدي الـ"ب"

هاتوا القلم نتك عليه

في ذاكرتكم لو جينا

في مدرستنا الجديدة

وكل مدرسة مصرية

يا بلادي.. يا بلادي.. أنا بحبك يا بلادي

❖ ❖ ❖

أكياس النابالم

فتحنا النوافذ الزجاجية المطلية باللون الأزرق بعد وفاة أحد الجيران إثر تناثر الزجاج متأثرًا بالضغط الجوي من سقوط إحدى القذائف بالقرب منا، اختبأت مع خالاتي أسفل سفرة جدتي، علمونا على صغرنا كيف نطفئ نار أكياس النابالم إذا اشتعلت في ملابسنا، أدينا ما فهمناه في أدوار تمثيلية، وقت التحاق أمي بالهلال الأحمر.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

الكحك ممنوع

في الأسبوع الأخير من شهر رمضان الموافق لأكتوبر١٩٧٣، سافر أبي لقريته لأمر مهم، أعطتني أمي اثنين وثلاثين قرشًا لشراء كيلو لحم من جزار في شارع ١٠ خلف بيتنا، قبضت على النقود خشية سقوطها، للمرة الأولى أحمل مبلغًا كبيرًا كهذا، وتجربتي الأولى أيضًا لشراء طلب للبيت، ولا بد أن أكون مسؤولة في غياب أبي، مررت بنسوة يحملن صاجات الكعك ذاهبات لتسويتها بالفرن، هاجمهن نسوة أخريات ورجال، أفرغوا الصيجان من الكعك خلطوه بالتراب، سبوهم:

- لا ذوق ولا إنسانية، شبابنا يحارب ويستشهد عطشان وأنتم تنقشون الكحك!

عدت دون شراء اللحم، تكرر المشهد أكثر من مرة حتى اختشى قليلو الإنسانية، اتفق المصريون أن لا يأكلوا الكعك ذلك العام.

❖ ❖ ❖

أيام السادات

اشــــتدت المظاهرات الطلابية مطالبة بالحرب، تعرفت على ماهية المظاهرات من فيلم سينمائي، أعجبت بحماسهم ورفضهم ما يكرهون، تمنيت أن أكبر، حلمت بذهابي للجامعة والتظاهر لرفض كل ما يضايقني، شعرت بضيق المراهقين من كل ما يحيط بهم مبكرًا جدًا، طريقة معاملة الأهل، أنت كبيرة، أنت صـــغيرة حســـب الموقف من وجهة نظرهم، رفض كامل من أمي لاعتراضـــي على تصـــرفاتها في أمور تخصـــني، مثل ما رباها أبواها، لجأت دائمًا لبيت جدتي، التي مثل أي جدة تنسى ما ربت عليه أمي وأصبح اللين طبعها.

نفى أبي إمكانية الحرب قبل سـنوات، وقد حدث، أراد أبي الانتقال لسـكن آخر؛ غالي الثمن، في منطقة أفضـل والاسـتقرار بها، سـألته أمي:

- هل سنبيعه عند عودتنا للسويس؟

- لن نعود للسويس.

أصـابت إجابته قلب أمي بغصـة، ذكرته بوعده لأبيها -رحمه الله- بالعيش في السويس.

أجابها:

- نفذت وعدي وأراد الله غير ذلك، لن ننتقل ثانية وتقوم حرب أخرى ونعود وهكذا، منطقة القناة لن تتوقف حروبها.

دبت الخلافات بشأن العودة، والحرب لم تنتهِ، شاء الله بعد النصر أن ينقل أبي بأمر عسكري للسويس، رغم أنه مدني؛ طبقًا لقانون طوارئ وقت الحرب، هُجِرَ أبي إلى السويس للعمل بالشئون الصحية بالسويس عام ١٩٧٤.

❖ ❖ ❖

التغريبة الثانية

لحقنا به بعد عام، عشت لسنوات حزينة، لا أشعر بالانتماء لمدينتنا الجديدة، الكهرباء مقطوعة معظم الوقت، الشوارع مكسرة، بلا زرع أخضر، عشت فترات الدراسة مكتئبة، مهاجرة بروحي بين المنصورة وطهواي.

عاش أبي مهاجرًا إلى قريته القديمة وأخلاقها، غير مقتنع بمدنيتها التي نراها في زياراتنا الصيفية، حزين في الأعياد التي يقضيها في السويس، كاره لحياتنا فيها، لكنه لا يحب التنقل والسفر، رفض العودة للالتحام بروحه، اختار العيش مغتربًا، بعيدًا عن من يحب، تلافيًا لجهد إنشاء حياة جديدة، تعلمت من ألمه أن الراحة النفسية أهم من التعب الجسدي.

❖ ❖ ❖

السوايسة

حكت أمي عن السويس والسوايسة كثيرًا حتى تخيلتها المدينة الفاضلة، ووجدتها مثل كل المدن، لكن تميز أهل السويس الذين عاشوا الحرب في السويس ولم يهاجروا بالعشق الحقيقي للسويس وشوارعها، لا يطيقون الحياة بعيدًا عنها، مستعدون للحرب ثانيًا وثالثًا، بل والموت مثل شهدائهم في سبيلها.

❖ ❖ ❖

حصيلة الأيام

بعد سنوات وفي إحدى زياراتي للمنصورة حرصت على معرفة أخبار أم جميلة وأم ياسر، علمت بطلاق جميلة بعد فضائح كثيرة، حزنت لأجلها وشمتُ في أمها، وأسعدني جدًّا نبأ زواج أبو ياسر بزوجة ثانية، لم يعد فوزي ركس من تهجيرته.

❖ ❖ ❖

البحث عن فوزي

تمنيت أن أجد (عمو فوزي ركس) في السويس، حكوا بهجرة الكثير من الصعايدة لها بحثا عن الرزق، استنتجت من مظهر قريبه ولهجته أنه صعيدي، حلمت بوجوده في السويس، مع أول نزهة في السويس مع أبي لمشاهدة معالم السويس، وجدتني أبحث عنه فوق كل عربة كارو مرت بجانبي، بعد عامين؛ ضبطت عيني متلبسة بالبحث عنه، بأمر من عقلي الباطن، ومع الأسف لم أجده ولا شخصًا مثله.

❖ ❖ ❖

الزهايمر

لم تنتهِ ذكرياتي، ولم يتوقف عقلي البغيض عن تذكر الماضي البعيد؛ وينسى ما انتويت عمله من دقائق، يتطور خرفه مع كبر العمر.

في العادي نشعر بالحزن دون تذكر للسبب، نضطر لدخول أرشيف الذكريات للبحث وسط أتربة الملفات العتيقة بعقلنا الباطن، نصاب من أنسجة العنكبوت العالقة به أو بميكروب لعين يعيش بين الأوراق، نصاب بعدها بأمراض لها مسمى واحد؛ مرض نفسي جسمي.

❖ ❖ ❖

أطفال الشرق

ذكرى (عمو فوزي ركس) أعادتني لطفلة جميلة ذكية، حساسة، كثيرة الأسئلة، محبة لتحليل المشاهد، كم حسبت أنها فاهمة لما حولها؛ واتضح العكس، تنهض من نُقرة فشلها مسرعة لتقع في (دُحديرة) هجرة جديدة، قد تنجح فيها أو تفشل؛ لكنه الأمل في الله؛ بالنجاح في اختباراته.

علمت أن الطفل الشرقي مسكين، يعلمونه نطق الكلمات بحب، ثم يسعون بضجر لكتم أسئلته الطبيعية لفهم الحياة.

الأهم اكتشافي المتأخر كثيرًا أن كل البشر مهاجرون بأرواحهم، إلى أمل يعيشون من أجله، لدعم المتألمين لتحمل قسوة حيواتهم؛ نهجر ما نكره إلى ما نتمناه لنستطيع مواصلة حياتنا.

من هاجروا لأسفل سقف إمكاناتهم وعملوا عليها حققوا ما أرادوا، ومرض ضيع صاحبه الحالم المغرور بإمكانات كاذبة، تحولت من هجرة لأحلام يقظة مستحيلة، داهمه الفشل واستفحل وجعه.

أما التهجير فهو القهر بعينه.

❖ ❖ ❖

هجرة إلى طهواي

اسمحوا لي أقدم نفسي

فلاحة وبنسى وأقول هاي

لا بقلد أو أمثل ف باي باي

دا عادي ف حد أكل بالشوكة

وجري ڤ الغيطان

بحب ماجدة الرومي

والأبنودي.. وفايا يونان

كبرت وأنا بسمع الآبا وخوليو

ومتقال كمان

سهرت ف بلدنا

على نور كلوب زمان

وف خمس نجوم

على حفلة بيانو

وعزف الكمان

ما تلوم عليا ڤ كلمة

وتقول.. لسانها ليه عوجان

دا قلبي ساكناه.. طهواي

إهداء

إلى كل أهل قريتي طهواي

إلى روح أعمامي وعماتي الأعزاء

إلى كل من أسعدوني وأحاطوني بالحنان

إلى أبناء العم والبنات، الأحبة والحبيبات

بعض ذكرياتنا من.... الحبيبة طهواي

طهواي

قريتي طهواي مركز السنبلاوين، المجاورة لمدينة المنصورة عاصمة محافظة الدقهلية، لم أولد أو أعيش بها سوى إجازاتنا الصيفية، مسقط رأس أبي، قضى بها حياته حتى نهاية تعليمه والتحاقه بالوظيفة، لكني ورثت منه عشقها.

جميلة هادئة، سكنتها عائلتي وعائلات أخرى منذ القدم، شوارعها نظيفة، كلّ ينظف أمام بيته، لا مقالب قمامة أو ورقًا ملقى هنا وهناك.

يتبعها عدد من العزب، تتوسطها الحارة الكبيرة، سميت بهذا الاسم؛ لوقوع بيت العمدة الحاج حُزين الوليلي، ومضيفته أولها تقاطع الطريق الممتد من الزراعية حتى نهاية القرية.

يفصلها عن حدود محافظة الشرقية، بداية من قرية برهمتوش قناية صغيرة يمكنك تخطيها بقفزة صغيرة لتصبح تابعًا إداريًا لمحافظة أخرى.

❖ ❖ ❖

الغجر

الغجر أو النَّوَر أو الهنجران، قبائل رحل، اختلفت المصـــادر أن أصــــولهم هندية، أو مجرية، في حين ذكرت بعض الكتب الإســـبانية انتســـاب الغجر لهم، بينما ملامح وجوههم ولون بشـــرتهم الأسمر الفاتح والخمري وشــعرهم الكســتنائي الناعم الغزير لا يعطي دلالة لدولة عن أخرى.

من سـنوات بعيدة، سكنوا أطراف قريتنا، عاشـوا في خيام لسـنوات، لا دين لهم، تدينوا بعد ذلك بدين البلد الذي سكنوه، في قريتنا الآن يدينون بالإسـلام، منهم من يصـلي ويصـوم، عمل بعضـهم في الموالد والأفراح بالرقص والغناء، وحواه، أو قرداتية.

رأيتهم يجوبون شـوارع المنصـورة كأسـرة، الابنة أو الزوجة ترقص مرتدية جلبابًا مطرزًا تقليديًّا ذا دلايات ذهبية، يصـدر عنها شـخللة مع كل حركة، والأب يدق على الرق والابن يمسك بسلسلة في نهايتها قرد مسكين وأخرى تنتهي بكلب، وإن كانوا من سـعداء الحظ بوجود ابن ضـــخم الجثة، أضـــافوا لفقراتهم فقرة فك الحبل المربوط به بواســـطة فرد منهم، ثم جمع (الغلة) أي النقود من المشـــاهدين الملتفين في شـــكل حلقة حولهم أو نلقي لهم بالقروش والبونبون من الشـــرفات، كان ممنوعًا علينا الوقوف حولهم خوفًا من اختطافنا،

بمجرد رؤيتهم نسرع إلى الشرفات للفرجة، وهذه هي الحالة الوحيدة التي يعمل فيها رجال الغجر.

بعض نسائهم يعملن بالسحر أو قراءة الطالع، يطوفن البلاد في الموالد، أو يمشين في الشوارع والحارات مارين على المقاهي يضربن الودع، يسألن الرمل، يقرأن الفنجان، مرتديات جلبابًا مطرزًا بالبرّق الذهبي (بفتح الراء)، والكثير من الحلي، متجملات بالكحل الأسود والوشم على الذقن واليدين، والحناء للكفوف والكعبين، رأيتهن يسرن حافيات، غير عابئات بحصى الأرض، يسألن راغبي قراءة الطالع:

- ارمِ بياضك.

أي ألقي بنقودك على الرمل.

البقية عملوا بالسرقة والخطف، سمموا سمعة قريتنا؛ ظُلمنا ولقبنا بفحش أعمالهم بـ (طهواي الحرامية).

بعضهم يسرق حتى الآن، بداية من ذكر بط إلى الماشية، المصوغات الذهبية، أو النشل من الحجاج والمعتمرين في المملكة العربية السعودية في مواسم الحج والعمرة، يعرفهم كل موظف قديم وحديث بميناء السويس أو سفاجة، أو ضابط موانئ أو شرطة بالمنصورة، للغجر معهم الكثير من القصص المشهورة خفيفة الظل.

لهم لغة شفهية خاصة بهم، لا يتزوجون من خارجهم، نساؤهم خمريات، جميلات بعيون ذهبية آسرة، جريئات، ضحك ومناغشة

بذكاء، خبيثات، رجالهم كسالى، متبلدون، نزعت مشاعر الغيرة من دمائهم.

في الماضي كانوا يحزنون لإنجاب الصبية، يفرحون بمواليد البنات، لأنهن منتجات، الرجل لا عمل له سوى جمع حصيلة السرقة، والزوجة تأتي له بالمزاج (أي لفائف التبغ والحشيش والمعسل)، والطعام وكل تكاليف الحياة، في السبعينيات والثمانينات لا ترى رجالهم إلا جالسين على المصطبة بجوارهم أجهزة المسجل والتلفاز والفيديو، يصحون ظهرًا أو عصرًا والسهر للصباح مع أفلام الفيديو، يعاب على من يصاحبهم أو يسهر معهم، من أهل القرية.

في الثمانينيات والتسعينيات استطاعوا بناء قصورٍ ضخمة بحدائق واسعة، فرشوها برياش فاخر.

مهر بناتهم غالٍ جدًا، مئات الألوف يدفعها أهل العريس كعوض لأهل العروس عن فقدانهم لما تجلبه من مال حصيلة سرقاتها، وانتقال دخلها لأسرة أخرى، المحظوظ منهم من ينجب البنات.

يعاف الفلاحون الزواج منهم، من سنين بعيدة تعلم ابن لهم وصار وكيل نيابة بقدرة قادر!، حكوا أن النائب العام قابله وأخبره أن سيوافق على تعيينه في منصب حساسٍ مثل هذا رغم سمعة أهله السيئة لأنه متفوق فوق العادة، شريطة خدمته في أماكن بعيدة كالصعيد حتى لا يستشعر الحرج، حدثٌ تتحاكى به بلدتنا حتى الآن، وحدث مهم موازٍ له وهو رفض فلاحة الزواج منه بسبب أصله

الغجري، تزوج من طفرة أخرى من قبيلته الفتاة المتعلمة الوحيدة فيهم وقتها.

أعراسهم تستمر لأيام، من الطبل والزمر وفرش الطعام للأهل والضيوف، أما أحزانهم فطويلة الأمد، صراخ وعويل، يمرغون أجسادهن في الطين، يلطخون وجوههم والرؤوس به.

في عزاء لهم؛ سمعت ما حسبته من الأغاني، وما هو إلا الندب على نقر التار- أي ذكر لمحاسن المتوفى - أوقع الرهبة والخوف في قلبي الصغير، يمتنعون عن الاستحمام حتى اليوم الأربعين من الوفاة، ولا يحلق الرجال ذقونهم، وقد تقص النسوة شعورهن، لا يطهون الأرز أو خبز الفطير أو صنع الحلوى لشهور، يشربون الشاي دون سكر لمدة قد تمتد من أربعين يوما وحتى عام كامل؛ إن كان المتوفى شابًا أو كبيرتهن وهي امرأة.

❖ ❖ ❖

(صباغين) الحمير

سرق أحدهم حمارًا من قرية مجاورة، كالعادة بمجرد الإبلاغ عن السرقة، أتت الشرطة من فورهم لبيوت الغجر للتفتيش والبحث عن المسروق، وكالمعتاد لم يجدوا الأوصاف المبلغ عنها، ببساطة لأنهم يصبغون الحمار بمجرد وصوله لبيتهم، إن كان أبيضَ يصبح بني اللون، وإن كان بني اللون لطخوه بلون أبيض ثقيل، وبعد فشل الشرطة في العثور على الحمار المسروق وانصرافهم، يتواصل السارق مع صاحب الحمار ويعيده له مقابل فدية تسمى (حلوان).

❖ ❖ ❖

(الحُرمة بتولد)

قلب الضابط الشاب دار المتهم بسرقة جاموسة رأسًا على عقب ولم يجدها، اضطر لدخول حجرة رغم معارضة المتهم لأن زوجته تلد بالداخل، أمرهم الضابط بإسدال الناموسية على المرأة، دخل وفتش الحجرة بدقة، وخرج يجر فشله، لم يدرِ أن الجاموسة هي من تنام فوق السرير تحت ناموسية ثقيلة، مكممة الفم.

❖ ❖ ❖

كيف تسرق بطة؟

ســـألتُ إحداهن عن كيفية ســـرقة البط، ضـــحكتْ طويلًا قبل أن تجيبني فقط لأني ضـيفة كما قالت: بداية تلك السـرقات الصـغيرة مثل البط والدجاج هي للفتيات الصـــغيرات، تربط حبة ذرة في خيط يمتد لأمتار كثيرة، تلقيه في ماء الترعة حيث يســـبح البط، تنتظر بعيدًا حتى تبتلعها البطة ثم تسحب الخيط برفق وهي تمشي عائدة لبيتها والبطة مضـــطرة للســـير خلفها حتى مكان خالٍ، تلتقطها وتسرع لبيتها، لذبحها وطهيها قبل انتباه مالكتها.

❖ ❖ ❖

أمن قومي

لم يتجرأ الغجر حتى بداية ثمانينيات القرن العشرين على سرقة أهل طهواي لسنوات طويلة إلا من بطة هنا أو دجاجة هناك، تحدى أحدهم العرف غير المكتوب وسرق من بيوت القرية، كان وقتها عمي السيد الوكيل هو شيخ البلد المسؤول، حاول إرجاعهم عما فعلوه، تجرؤوا بالقول ورفعوا سلاحًا آليًا على أهل القرية، أصابوا رجلًا من القرية في ساقه، كانت فرصة عظيمة للشرطة لتأديبهم، ولمنع حرب أهلية بالقرية بعد أن دمر شباب عائلة المصاب بيتَ مَن أطلق العيار الآلي، طوقت القوات القرية ليلة أول رمضان، ولأن الجريمة هذه المرة ليست حمارًا أو جاموسةً، إنما أسلحة وأمن قومي، لم تجد قوات الأمن ذكرًا واحدًا في بيته، هربوا جميعًا، بعضهم اختبأ بالحقول، والآخرون عند أقاربهم في قرية العاصية في محافظة الغربية، والبراهين بدمياط.

بقوا لستة أشهر خارج القرية، عادوا بعد اعترافهم على المتهمين، كانت ضربة ماحقة تأدبوا بعدها ولم يعودوا لسابقتهم، حمدنا الله، بعد إجهاد نسوة العائلة في تحضير طعام إفطار وسحور؛ لثلاث عربات أمن مركزي مليئة بالجنود، بالإضافة لاستضافة الضباط في المضيفة، فترة الحصار.

❖ ❖ ❖

نشال في الحرم المكي

شـــاهد أحد أبناء القرية فتاتين من بنات الغجر في الحرم المكي، تحومان حول غنيمة رجل طيب متوســـط العمر يرتدي جلبابًا، طريقتهم في النشل، إحداهما تشاغل الضحية أو تصطدم بها، يحدث ارتباك، تنشل الأخرى بسهولة، اختفيتا في لمح البصر، وقع الضحية أمامه، حمل الشـــاب مصـــحفه وأســـرع لنجدته، وجده يصـــرخ بعد اكتشـــاف ســـرقة ماله، جرى الشـــاب يمينًا ويســـارًا حتى أتى بالفتاة، قدمها لشرطة الحرم، صرخت أنها بريئة، تم تفتيشها بواسطة سيدة، لم يجدوا بحوزتها شيئًا، انصرف الشرطي بعد لوم الشاب وتهديده إن تعرض لها، سألت الغجرية الشاب أن يضع يده بجيبه، صعق أن وجد المال المسروق به، ضحكت قائلة:

- لولا خوفي على أبيك وأمك من موتهما لقطع يدك، لطلبت تفتيشك.

نهرته كأستاذة:

- هات الغنيمة، إن رأيتني ثانية ابتعد وكأنك لا تعرفني وإلا ستجدها كلها بجيبك.

ألقى المال ملتاعا، جرى مبتعدًا عن نار كادت تأكل مســـتقبله وسمعة أسرته.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

العمدة

تمتع وتميز أهل القرية بأخلاق وعادات مختلفة عن المدينة، يحكي أبي أن العمدة كان يلقب جدي بالعم حمزة رغم أنهما أبناء عم، ومتقاربان في الأعمار، إنما سمتهما التبجيل والاحترام.

كان عمدةً مختلفًا عن ما نراه بالأفلام القديمة، الشباب والصغار ينادونه (أبا الحاج أحمد)، أما كبار السن فالنداء ب "يا عمدة أو يا حاج"، رغم سطوته وامتلاكه وإخوته وأولاد عمومته لمعظم أراضي القرية الزراعية، لكن لا افتراء أو جلد أو ظلم أو....

ورث منصب العمدة عن أبيه، بجانب كونه خبيرًا في بورصة القطن، حكى أبي عن انتقال (العمودية) إلى عائلة أخرى، استمر أهل القرية في مناداته بالعمدة، واللجوء إليه في فض المنازعات، ولا بد من زيارة مأمور المركز له وتناول الغداء في بيته إذا اقتضت الأمور نزوله للقرية، مرت فترة عصيبة على العائلة حتى عاد التاج لها، ودرة التاج هاتف أسود ضخم له سماعة وبوق، والسلاحليك أي غرفة سلاح الغفر، سَمَعتْ أطراف القرية صراخ النسوة وعويلهم لعودة السلاح والهاتف من دارهم إلى دار عمي ثانية.

حكت سبطته الوحيدة عن طباعه الحنون مع الأبناء، واحترامه الجم للزوجة، سابقًا لعصره في احترام حرية المرأة، انعكست ثقته

بنفسه على تقديره لرأي زوجته، لم يتخذ قرارًا مفردًا بشأن يخص عائلته، رغم استقلاله بغرفة خاصة، لا بد من الإفطار مع شريكة حياته، والسماح لها بتدخين لفافات التبغ مثله.

عاصرتُه في طفولتي، دخلت بيته ولعبت مع أحفاده، وبنات أخيه، جلست وسط رجال العائلة كطفلة وافدة، مسموح لها بما لا يسمح لغيرها من الأطفال، أسمع أحاديثهم ومشكلات القرية وكيفية الحل، تشربت بأخلاقهم ومفرداتهم، خبرت مقاييس الاحترام بينهم، اعتنقت إيمانهم العميق بأهمية العائلة ومركزها والمحافظة على العادات والتقاليد، آمنت بأكثرها؛ رفضت بعضها، بدأت معاناتي مع أول رفض لتقليد اتبعوه.

❖ ❖ ❖

بيت العمدة

دار العمدة من طابقٍ واحدٍ ممتدٍ على مســـاحة كبيرة في بداية الحارة، مضيفته تحوي فسحته صالونين ضخمين، وعددًا من الغرف لإقامة الضــيوف، وهناك مطبخ مجهز لصــنع الشــاي والقهوة فقط، يقام فيها عقد قرآن شــباب وبنات العائلة أو الاجتماعات، واســتقبال الضباط والحكمدار، وعزاء أموات العائلة.

ســراي أخيه الحاج عبده على طرف القرية وأول منزل يســتقبلك بعد الزراعية، مكونة من طابقين على مساحة كبيرة، محاطة بحديقة شاسعة، هي ودار العمدة الوحيدان مبنيان بالطوب الأحمر والأسمنت آنذاك، ملحق بهما منزل خلفي من الطوب النيئ للمواشـــي والفرن والطبخ والطلمبة.

❖ ❖ ❖

زينب الوليلي

استبعد عمي من العمودية إثر غضب النظام وإزاحته لنزار باشا رئيس وزراء مصر زوج السيدة زينب، ورغم أنها ابنة عم غير مباشرة، ومن محافظة أخرى عُزِلَ العمدة.

ولأنه محبوبٌ، ساعده كثيرون من القيادات؛ لكيلا تنتقل العمودية والهاتف والسلاحليك إلى عائلة أخرى، حولوا نظام القرية إلى مشيخة يتولاها فرد من العائلة، تابعة لنقطة شرطة في أطراف البلد، وإن بقي وضعه الشرفي واللقب والضيافة في بيته رحمه الله.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

مقاطعة اللحم

صباح اليوم الأول لعيد الأضحى وفي حوش بيته الخلفي ولأول مرة شاهدت ذبح بقرة، تألمت في حين فرح الأطفال، تخيلت أني وسط قبائل آكلة اللحوم التي سمعت عنها من أبويّ، وأني سأُذبح كما المسكينة المربوطة أمامي، رأيت الخوف في عينيها ورفة جفونها، أبصرت رعبها، آلمني الحبل الخشن (الرتعة) الموثق لساقيها، خنقتني (السلبة) حول رقبتها؛ تسحب منها بقوة، دمعت عيناها؛ تنظر خلفها إلى أخوتها تستغيثهم، سألت ابنة عمي:

- كيف عرفتْ مصيرها؟!

سخرت ابنة العم مني، تكالبوا عليها، أسقطوها أرضًا، رمقتهم بنظرة حزن، تلاقت عيناي معها، أغمضت عينيها في استسلام، لم تقاوم ثانيةً، صرخت من حرقة ألم السكين الحاد، كاد يغشى عليّ، سخروا من حزني، هرولت بالحارة هربًا من صوت خوارها، لم أتناول اللحم لسنوات طويلة، لم أحضر أضحية مرة ثانية.

❖ ❖ ❖

جدي

ورث جدي عن أبيه فدادين كثيرة، كان ميســـور الحال، محب للأناقة والنظافة، منفق ببذخ على نفســـه وأهل بيته، ذواق، عاشـــق للجمال، مثال للتأنق في القرية طبقًا لعصــــره، خاط خفه وأحذية جدتي خصيصى في السنبلاوين أو ميت غمر من الجلد الطبيعي، في عصـرٍ كان الفلاح يمشــي حافيًا، عباءاته الشـتوية من الجوخ الثقيل، تزين حافتها خيوط حرير ســوداء، وفي الصــيف يرتدي جلاليبَ من قماش قطني مكوي بمكواة القدم.

زوجته الأولى الجدة (منى) جميلة ومن عائلة مناســـبة لعائلتنا، أنجبت (ست أبوها) أولًا، لم يفرح بها فهو لا يعترف (بخلفة البنات) ولا يســـميهن، لا يدخل للوالدة للاطمئنان أو المباركة إلا إن كان المولود ذكرًا، ثم جاءت الفرحة لجدي مع وصـــول عمي (عليان) ثم سميحة وعبد العظيم ومحمد عليهم رحمة الله جميعًا.

عاصــــر أبي في طفولته عبيدًا ســـودًا يخدمون بالدار والحقل، عاملهم جدي كأبنائه، يأكلون مما يأكل الأســـياد ويرتدون ملابس جديدة بالعيد مثلهم.

❖ ❖ ❖

الديبة والهوجاء

وسـط دهشـة الجميع أغرم جدي بأرملة من فقراء القرية، كبيرة السـن، لها أبناء رجال، أمهرها سـتة فدادين اسـتولى أبناؤها عليها للموافقة ومباركة الزيجة الغريبة، سمراء ضـخمة البنية لا تمت لمواصفات الجمال حين ذاك بأي صلة، لم يفهم أحد ممن حوله سر إصراره على الزواج منها وهو متزوج من امرأة جميلة جدًا.

وكما انبهر بها بسـرعة، عانى منها ومن طباعها بسـرعة، امرأة جادة حد القسـوة، لا تتزين أبدًا، ترتدي الجلباب الرجالي، تلف خصـرها بقش مبروم لتقصـير الجلباب كالرجال العاملين بالحقل، دفعته للانهيار بعدم تجاوبها معه، لا يهمها إلا العمل والحقل، يئست أن يهتم زوجها بأملاكه، اضـطرت للأشـراف بنفسـها على (تملية) الأرض والخدم في الدار، لم تنجب، خافها بعد أن عرف بخروجها للحقل في ظلمة الفجر وحدها، وعلمه بخلعها شـجر القطن القاسـي الجاف بيدها العارية، من مسـاحة فدان، شـجر يجرح أيدي التملية الرجال إذا خلعوه من الأرض، تأكد جدي أنها ملبوسـة بجان، لم يتحسـن الحال بعد أن أفتته إحدى العجائز صـديقة لأمها بسـر رضـاعتها من لبن ذئبة، لقبتها ضـرتها ومن بعدها القرية كلها ب "فريزة الديبة".

تجنبها جدي؛ لم يحاول دخول غرفتها مرة ثانية واكتفى بالزوجة الأولى.

بعد وفاتها وانتهاء العزاء؛ عاد لدق باب غرفة فريزة، وجد ماجورًا ثقيلًا خلف الباب، نادها، أجابت:

- اذهب بت بجانبها في المقابر كما كنت تفعل في حياتها.

وتم الطلاق.

ســـــرعان ما تزوج من الثالثة، توحيدة الجميلة الفاتنة، لكنها مع الأسف هوجاء، غيورة، عاشت تخشى زواج جدي بأخرى، بدرت صفائح الجنيهات الذهبية وســـط القش فوق ســـطح الدار، أهدرت حصـــيلة الحصاد ومصروف العام كله، ضاق بغيرتها المجنونة وبتصرفاتها غير المســـئولة، نالت علقة ســـاخنة وأعادها لبيت ذويها، وتم الطلاق، لم تنجب إلا عمي حمدي وعمتي هادية، وكانا ذا تصـــرفات غريبة مثل والدتهما و..

وتزوج جدي..

❖ ❖ ❖

(عميرة)

كان جدي في الأربعين من العمر حين رأى جدتي وعشــقه الوحيد لســنوات طوال، عميرة؛ برفقة الوصــي عليها لا أذكر إن كان عمًّا أو خالًا ذاهبين للمجلس الحســبي بعد وفاة والديها، فتاة في الســادســة عشــر من عمرها غضــة بضــة، من عائلة كبيرة مشــهورة بالجمال، لشــدة جمالها أســدلت خمارًا مزركشــًا أســودَ شــفافًا من الحرير الطبيعي على شعرها ووجهها؛ فزادها فتنة وجاذبية، كانت رحمها الله بلون الرخام، ذهبية الشعر مموج قليلًا، بعيون واسعة مزيج من اللون العسلي الفاتح والأخضر، رموشها بنية كثيفة، ممتلئة قليلًا تتناسب ومقاييس الجمال آن ذاك.

جُن بها، تقدم لخطبتها، تعجبوا لرجل أربعيني ســـبق له الزواج ثلاث مرات، يتقدم للزواج ممن في مثل عمر أولاده، رد الوصـــي على رسول جدي للخطبة غاضبًا:

- ابنتنا من عائلة كبيرة أصــيلة، لديها إرثها، أم يحســبها كأجرية الحقول لا تجد ما تأكله تفرح بزيجة غني بعمر أبيها رحمه الله.

اســتعظم جدي قول الوصــي، أقســم على الزواج منها، طلب من ســـاحر بقريتنا كتابة (عمل) للوصـــي للموافقة على الزيجة، دفع الثمن "جنيه ذهب"، العجيب أن عائلتها أرســـلوا له مرســـالًا ليأتي لقراءة الفاتحة بعد استلام العمل (السحر) بثلاث أيام.

حكت عمتي عن قوة شـر ذلك السـاحر وكفره، بلبس أرغفة الخبز كخفين في قدميه، سـكب اللبن في المرحاض، أهان المصـحف الشـريف، ليزيد قوة سحره.

أمهر جدي العروس عشرة فدادين، قالوا إن الوصي ضمها لأرضه، ملكت جدتي قلبه، احتوته؛ عشـقها، لم يأتِ لها بضـرة كما فعل مع البقية.

حكت عمتي هانم بتدليلها له، وتنفيذ ما قد يرى البعض أنه دلال زائد، كأن تسـهر لانتظار عودته من صـلحٍ لعائلتين أو اجتماع للعائلة في المضيفة؛ تقشر له اللب حتى تملأ طبقًا مخصصًا ليتناوله حين يعود، غمزتني عمتي بخبث لذيذ، أنه ما كان يسـهر بالخارج إلا للضـرورة فترة زواجه منها، وما طلباته المدللة إلا لكي لا تخلد للنوم قبل عودته.

توفيت جدتي في شبابها، إثر سقط أجنتها الواحد تلو الآخر وهي مريضـة بالسـكري، بعد أن أنجبت عماتي الثلاث الشـقيقات غالية، راضية، سعدية، ومن الأبناء عيد، جبالي، أحمد، عبد المجيد، بكري.

❖ ❖ ❖

جثث أعمامي

على مدار عشــــرين عامًا مات لجدتي أطفال وأجنة كثر، دفنوهم في (طاقات) البيت كعادة بلدتنا، فتحة غائرة في حائط البيت يضعون الجنين فيها ثم يغطونه بطبقة كثيفة من الطين، لســــنوات طويلة حسب تلك الطاقات لوضع لمبة الجاز أو بعض الأغراض، آه لو علمت في صغري أن بها جثث أعمامي الصغار، ما أقمت أبدًا بالدار للحظة، اكتشــــفنا تلك المقابر الجماعية عند هدم بيت جدي، اســــتخرجنا عظامهم ودفنّاها بمقابر العائلة.

سألت: ما الهدف من دفن الصغار في حوائط البيت، هل هو جلب للبركة؟ أم طردًا للأرواح الشريرة والشياطين؟

وفاجأتني الإجابة، يعتقدون أنه لو دفن الجنين في الأرض كباقي مخاليق ربنا، ومرت فوق قبره أي ســــيدة ســــتصــــبح عاقرًا، أو كما يقولون بلغتهم (تنكبس)، ولفك الكبســــة ســــتحتاج مجهودًا وأموالًا كثيرة تنفق على الســــحر والعرافين، لذلك رأوا دفنهم في حوائط البيوت لأن لا يوجد سيدة ستمشي على الحائط إلا كانت المرأة القطة (cat woman).

❖ ❖ ❖

الجدة ستوتة

في أثناء حصاد ما بعد وفاة جدتي وعلى غير عادة جدي ذهب إلى تفقد العمل بالحقل، لا يحب التعرق ولا حرارة الشمس أو اتساخ ملابسه بالتراب، يوكّل العمل إلى "خولي" وهو رئيس العاملين في الحقل، يتفق على العمل مع العمال (الأجرية)، يأمرهم وينهاهم ويشرف على الحصد والتخزين.

وهناك لمح امرأة جميلة، حزن أن رأى شقًا في جلبابها أسفل الإبط، ليس لأنه وشى بأنوثتها إنما لأنه فتق متعمد يعني أن لديها طفلًا رضيعًا، يلتقم غذاءه من خلاله، عادة الأجيرات المرضعات في الحقول، سأل، عرف أنها أرملة تسعى على أبنائها بعد وفاة زوجها الثاني.

تعجبوا لحضوره يوميًّا فترة الحصاد كلها، بل وتناول طعامه مع العمال (الأجرية)، عكس المتبع؛ أكل الخولي وصاحب العمل وحدهما من طعام مختلف عن طعام العمال، لكن وعلى طريقة الأفلام القديمة جلس جدي وأكل وسط العمال ومن طعامهم، رجل تقدمي اشتراكي حتى يقضي وطره.

بعد انتهاء العمل لم يطق عدم رؤيتها، تقدم لخطبتها، وافقت في حين اعترضت عائلته، غفروا له تكرار زيجاته، لكنه الآن في الستين من عمره، كيف له والأبناء صاروا جدودًا أن يقترن بأجريه سبق لها الزواج مرتين ولديها أبناء؟! لكنه الحب!

أصر العاشق وتم الزواج الخامس، اضطر لشراء منزل خاص بها في بداية الحارة الكبيرة بعيدًا عن الدار الأساسية، احترامًا لرغبة

الأبناء وتفاديا لغضـبهم، كبر بناته والأولاد صـاروا رجالًا، والعروس صـغيرة جدًا في السـن، تولى الإنفاق على أبنائها الأربعة في كنفه مع أبنائه الأربعة منها.

"سـتو سـتوتة" الوحيدة التي عاصـرتُها من زوجات جدي، حنون طيبة، حكى أبي أنها شـكته إلى أبيه في أمر ما، خاصـمها أبي عشـر سنوات، رغم أنها كانت تغسل ثيابه وتعد له زيارة الطعام لزملائه في أثناء فترة خدمته العسكرية، اضطر لمصالحتها في زيارة عيد، دق باب الدار وفتحت له وتم السلام والصلح.

كنت كلما زرت طهواي وحدي دون أسـرتي، أقيم عند عمي بكري، تصـر على دعوتي على الغداء وتعد الطعام وكأني فرد كبير ولسـت طفلة، توطدت علاقة أبي بها بعدما كبر، عاملها كعماتي، فهي أصغر منه بكثير، رحم الله زوجة جدي وحبه قبل الأخير.

أنجبت لجدي أربعة أبناء، عمي جميل وعمي إسماعيل ثم ذكية (على اسـم والدة جدي) وجمال؛ طفلان غاية في الجمال، تحدث الجميع بجمالهما رغم ارتفاع درجة الجمال في قريتي إلا أنهما فاقا الجميع.

كان من عادة الفلاحين رش المزروعات بمبيد حشـري قاتل اسمه (توكسـافين) أظنه للقضـاء على دودة القطن، بعد فراغ العبوة البلاسـتيكية الكبيرة - لم تكن تلك العبوات متوفرة في الأسـواق آنذاك - تغسـل وتسـتعمل للتخزين في المنزل ولأن المادة فتاكة حدثت منها مآسـي كثيرة، رغم تحذيرات الجمعية الزراعية والوحدة

الصحية، فكانوا يغسلون العبوة عدة مرات قبل تعبئتها بزيت الطعام، قرب فراغ العبوة كان القاع محملًا بتلك المادة، وضـــعوا الزيت على الفول وأكل أبي وعمي بكري والطفلان جمال وذكية.

كان أبي أول الضــحايا، نقلوه في ســيارة العمدة إلى مســتشــفى السنبلاوين لإجراء غسيل معدة بعد حالة القيء الشديدة والإسهال التي انتابته، فســـروا شـــعوره بالأعراض قبل الجميع لأنه أصـــبح (بندري) مثل أبناء البندر ومعدته رقيقه لا تحتمل، حكى أبي لي أن من غزارة العرق وشـــدة القيء ســـقط منه بنطاله عند نزوله من السيارة.

تلاه عمي في ظهور أعراض التسمم، نقلوه في سيارة "أخو العمدة"، لحقوا بأبي في الطريق، لا أعلم لماذا تأخرت الأعراض في الظهور على الطفلين، سارعوا بهما إلى الوحدة الصحية بالقرية، لم يستطيعوا إنقاذهما لصغر سنهما، ولا توجد سيارات أخرى ببلدتنا.

كان بالوحدة ممرضـــتان غريبتان عن القرية، انفعلتا لوفاة الطفلين شديدي الجمال كأنهما ملاكان نائمان؛ ضربتا عمتي علقة ساخنة لإهمالها، ظنا أنها الأم.

عاد أبي وعمي بعد إنقاذهما، بقيا بالفراش لفترة ليســـت بالقليلة لقوة التسمم، رحم الله الجميع.

❖ ❖ ❖

سميحة

عمتي سميحة طيبة حنون، تحمل الأخلاق والعادات والأخوة على رأسها، لها طريقة مختلفة في ربط غطاء رأسها، أشبه بما يلبسونه في المسلسلات التليفزيونية، ضئيلة الحجم، نحيفة، تخفي أسفل طرحتها الواصلة من رأسها حتى قدميها ضفيرتين طويلتين، كثيفتين مكتنزتين، غزا الشيب شعرها متأخرًا جدًا، حتى كانت في التسعينيات ولا يزال بضفيرتيها شعر أسود، حياتها قصة كفاح، مات عنها زوجها في الثلاثينيات من عمرها، لبست السواد بقية عمرها، تولت تربية أيتامها ولم تتزوج، مات ابنها الوحيد في شبابه، تولت من جديد تربية الأحفاد حتى كبروا.

❖ ❖ ❖

عمي عليان

الابن الأكبر والجالس على عرش قلب جدي، يشــبهه كثيرًا، قويٌ حنون، محبٌ لعائلته جدًّا، محتويهم، كل أحفاده متشـابهون بشـكلٍ غريب.

في أثناء انشـغال أمه ببعض الأعمال المنزلية، اختفى من باحة الدار، صـغيرًا لم يتمكن من السـير جيدًا بعد ولا ينطق إلا كلمات بسيطة غير واضحة، ساد الهرج والمرج؛ اندفع الجميع للبحث عنه، نادوا باسمه داخل وخارج الدار، سألوا الجيران المجاورين، نفوا رؤيته، حل المساء، في البداية خشى البعض أن تكون واحدة من المواشـي قد أكلته كما حدث مع طفلٍ صـغيرٍ لم يبلغ اليوم السـابعة من عمره، لكنهم تراجعوا؛ فالمواشـي لم تخرج من الحظيرة (الزريبة) اليوم- لانشـغالهم - ولا أثر لدماء على فم أي منهم، أجمعوا أن الجنّية أم الصـبيان خطفته، وقرروا الذهاب إلى عرّافة في قرية قريبة لفتح المندل لمعرفة أين هو أو التصالح مع الجنيّة لرجوعه.

مع هدوء المساء ارتمى الجميع مجهدين من البحث والنداء بصوتٍ عالٍ على المفقود، وضعوا الكلوبات المشعلة جانبًا، جلست أمه تنوح وقد أخذ منها الصـراخ كل جهدها هُيئ لها سماع صـوته يناديها، زاد نواحها، أمرها جدي بالسكوت، أرهف السمع وتتبع الصوت حتى وصل

إلى غطاء بئر الصرف (الطرنش)، رفعه، وصل صوت بكاء الطفل ونداؤه واضحًا، بمساعدة المتجمعين أخرجوه سليمًا من البئر، وقدرا بلطف الله كان منزوحًا في اليوم السابق، ولولا ذلك لغرق عليان.

طلب جدي من الطفل أن يشير إلى من ألقاه بالبئر وكانت المفاجأة أنها زوجة الأب التي لم تنجب، كيدًا لضرتها وخوفًا من الطلاق، نالت علقة محترمة من جدي وطردها إلى بيت أهلها.

الطريف أنها في شيخوختها مرضت مرضًا شديدًا اضطر عمي عليان لحملها والذهاب بها إلى البندر للكشف عند الطبيب بعدما زارها حلاق الصحة ولم تفلح وصفته، دعت له بطول العمر والصحة، ضحك قائلا: "ليتني غرقت يوم ألقيتني في البئر حتى لا تجدي من يحملك".

ضحكا معًا، نفوس طيبة، رحمك الله يا عليان.

❖ ❖ ❖

أبي

(أحمد أبو حمزة)، حمزة هو جدي، "أبو" في قريتنا بمعنى ابن، طفلٌ هادئٌ بالتناسب مع أطفال القرية، الابن الحي رقم ١٣ من الزوجة الرابعة، كنا نضاحكه قائلين إنه ثلاثة عشر على أربعة.

استمعت بشغف لحكايات أبي عن طفولته، نشأ يتيم الأم، لا يكاد يذكرها، ربته عماتي، ذكرياته الأجمل مع عمتي غالية، الأحب لقلبه، والتي رفض جدي إتمام زواجها إلا بعد زواجه من العروس الجديدة لتخدمه، بعد وفاة جدتي.

لم يمنع هدوء أبي وعمي الأصغر بكري من التسبب في الرعب للخادمة، حتى طالبت بعمل زار لإرضاء الأسياد من الجن، بعد تكرار نقص اللبن من شليات اللبن، لا أثر لتسرب اللبن حولها يشي بشرخ أو ثقب بها، أو أثر على الحافة يدل أن آدميًا شربه؛ إذًا هم الجن شربوه.

أشارت عليها جارة أن تراقب حجرة الخزين، اكتشفت أنهم يشفطونه بواسطة أعواد من البوص.

نهت عمتي غالية أبي وأعمامي عن الدخول للوالدة حديثًا إنسانة أو ماشية خوفًا من انقطاع اللبن من ثدي الأم، لم يؤمن أبي العنيد بهكذا خرافات، تعمد حلق رأسه والدخول للبقرة أو الجاموسة الوالدة دون غسل رأسه ليتأكد من حقيقة ما يقولون، وكما توقع استمر إدرار اللبن من ضرع الوالدة ولم تكبس.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

الحذاء المحروق

يمتد العيد في قريتنا من مساء الوقفة وحتى مساء اليوم الأول، أما ثاني أيامه يذهب الفلاح لحقله وكلٌ إلى عمله؛ فالعيد انتهى.

تبيت ملابس العيد وحذاؤه في أحضان الأطفال، يستيقظون من الفجر لا يخرجون من الدار، ينتظرون الأعمام والأخوال القادمين للتهنئة بالعيد بعد الصلاة، لأخذ (المضيوع) أي العيدية، يستمتعون بإنفاقها في سوق العيد والمراجيح، أما من تعدى الثانية عشر فيذهبون إلى السنبلاوين، لأكل الطعمية والكشري المصري وشرب (الكازوزة) أي البيبسي وعصير القصب، ثم دخول السينما التي تعرض ثلاثة أفلام بتذكرة واحدة، أحدها هندي والثاني (أكشن) غالبا لـ (بروس لي) والثالث مصري، يعودون في المساء، مترقبين لنزهة العيد القادم.

حكى أبي عن رصهم لأحذيتهم بجوار الحائط، والاكتفاء باحتضان الملابس لازدحام السرير بالأطفال، سقطت لمبة الجاز فوق حذاء أحد أعمامي سيئ الحظ وأحرقته، قضى العيد في بكاء ونكد.

❖ ❖ ❖

وفاة عبد المجيد

توفي عمي عبد المجيد شابًا؛ أثر جرعة زائدة بالخطأ بحقنة ضد البلهارسيا من ممرض ضعيف النظر، سقط متوفيًا بمجرد انتهاء الحقنة، المحزن أن العمدة في أثناء العزاء سمع من يسخر من حزن جدي على ابنه الفقيد وله من الأبناء الذكور اثنا عشر، أنهى عمي العمدة العزاء فورا.

❖ ❖ ❖

حب جدي الأخير

كان أبي يستعد لدخول الجامعة، في حين يستعد جدي للعروس الجديدة التي ألح لأهلها برغبته في الزواج من ابنتهم وللعجب رحبوا به زوجًا لابنتهم رغم فارق السن المخيف، عريس تخطي السبعين وعروس لم تبلغ الثامنة عشر، لم يمهله القدر لإتمام تلك الزيجة، أو كما أسميناها كأحفاد متندرين بالحالة؛ جريمة، مرض جدي كما قالوا (مرض موت)، سحب أبي أوراقه من الجامعة، وتقدم لسوق العمل.

مات جدي وله من الأبناء سبعة عشر ذكرًا وأنثى، متحابين، بلا اختلاف على ميراث لأنه ببساطة لم يترك ميراثًا، باع معظم الأرض على إسرافه المادي وزيجاته المتعددة، نال أبي ستة قراريط كميراث أجّرها لعمي ثم باع له ثلاثة قراريط، وهكذا امتلك العم الست قراريط طبقًا للعرف أن المستأجر له نصف الأرض وهو الأولى بالشفعة.

نتيجة لضياع الأرض على تعدد الزيجات والإسراف، لم يتزوج أي واحد من أعمامي زوجتين إلا من توفيت زوجته فيتزوج الثانية، عدا ذلك لم يجمع أحدهم زوجتين في آنٍ واحد، بل إنهم يعيبون على من يفعلها، ولا يضعون مالهم إلا في مواضعه الصحيحة بلا إسراف أو تقطير.

عمـل أبي أولًـا "بـاش كـاتـب" في هيئـة الآثـار، انتقـل للعمـل مع الباحثين والمنقبين الأمريكان لإجادته للإنجليزية، شـــهد اكتشـــاف مقابر وافتتاحها، واســـتخراجهم لكثير من التماثيل الفرعونية، لم يخشَ لعنة الفراعنة ولم تصبه، انتقل بعدها لوزارة الصحة.

❖ ❖ ❖

دار جدي

تتوق نفسي للماضي السعيد؛ أسمع ضحكاتنا، صراخ لعبنا فوق السطح وسط القش يوقع بعضنا البعض؛ بلا إصابات؛ فالقش وسطح جدي حنونان، سمرنا في الليل وإلقاء النكات والفوازير ولعب (الكوتشينة) وإصدار الأحكام الغريبة والمثيرة للضحك، أنا وإخوتي وأبناء عمومتي.

تكونت دار جدي من دورين، مبنية بعروق الخشب والطوب اللبن، لها بابان، أحدهما عادي صغير جانبي للمضيفة، وبها مدخل لساحة البيت، للضيوف الأغراب، ومجلس للرجال في الشتاء، الباب الثاني كأبواب المساجد الأثرية، عالٍ، عريض، من خشبٍ ثقيل مصفح بالحديد على أضلاعه، محفور عليه نقش جميل، له يد حديدية منحوت عليها بدقة يد كبيرة بإصبعها خاتم غاية في الروعة؛ مفتوح طول اليوم، يغلق ليلًا من الداخل بسجان حديد، مفتاحه كبير طويل بالمقارنة بالمفاتيح الحالية، كان هو المدخل الرئيسي لأهل الدار.

جدرانها رطبةٌ صيفًا، دافئةٌ شتاءً، السقف من الخشب؛ عالٍ جدًا، به فتحات مستديرة، تسمى (ناروزة)؛ للإضاءة نهارًا وتجديد الهواء، تغطى في الشتاء بالمشمع، حتى لا ينزل ماء المطر من خلالها، كثيرًا ما سقطنا في الناروزة في أثناء اللعب، لننحشر فيها حتى الوسط، بينما يحفظ القاطنون، أماكنها ولا يسقطون فيها.

ساد الود وسيطر، تلاصقت أسطح المنازل وكان من العادي مرور أحد الجيران بباحة المنزل ليصعد السلم إلى السطح، بخطوات بسيطة ينتقل إلى سطح داره ومن ثم ينزل إلى داره بدلًا من المشي إلى بداية الحارة ثم الرجوع لمدخل داره، يمر ملقيًا السلام على أصحاب الدار.

الصالة الأمامية للدار تحوي خمس غرف كبيرة واسعة عليها طلاء بالجير، نوع من التميز عن دور أخرى فقيرة غير مطلية، سكنت كل زوجة من زوجات جدي إحدى الغرف، من بعدهم أعمامي وزوجاتهم، كل ابن وزوجته وأبناؤه في غرفة ومع كثرة الأبناء بعد وفاة جدي بدأ أعمامي من بناء دور أخرى للسكن وتزويج الأحفاد، حتى لم يتبقَّ فيها سوى عمي بكري، رحمه الله.

الجزء الداخلي أو الخلفي للبيت يوجد باحة كبيرة تتوسطها طلمبة سوداء بيد طويلة لضخ الماء، تصدر صوتًا حين الضخ، تأتي بماء بارد صيفًا، تأتي بالماء من عمق كبير، يسمونه ماء معين، تصب في حوض أسمنتي بمصفاة تصب في بئر الصرف (طرنش)، والطلمبة في دار جدي أو عمي، سبيل للبيوت المجاورة يملؤون منها كما يشاؤون، سعدت أيما سعادة حين استجمعت كل قواي إلى ذراعيّ وتمكنت من ضغط ذراعها ليتدفق منها أطيب ماء وكأن به سكر بالتناسب مع ماء الشرب بالسويس المالح قليلًا.

بالصـــالة الداخلية عدة أبواب، على اليســـار (الكانون)، وهو مكان يكفي لـــــ(حلتين)، مُسـور بحواف طينية، بارتفاع ثلاثين سـنتيمترًا، يوضـع فيها الحطب المشـتعل والقش لتسـوية ألذ طعام على الإطلاق، على يســـــاره الفرن البلـدي، ثم بـاب الحمـام وكـان هـذا هو الجزء الأصــــعب في حياتي في بيت جدي، عبارة عن طوبتين بينهما حفرة دائرية ســـوداء، مظلم مهما أُنير بمصـــباح الجاز، أبكي كلما دخلته، أخرج صارخة: "أريد العودة للمنصورة.." أنسى كلماتي بعد دقائق.

بعد المرحاض ســلم خشــبي صــاعد للســطح، يهتز مع صــعودنا مصـدِرًا طقطقة عالية كأنه سـيسـقط لفوره، لكنه ظل شـامخًا متينًا حتى هدم البيت، أنزل وأصـــعد عليه مســـرعة لتعلو طقطقته التي أعشــقها، على يمينه حجرة لتخزين التبن والكُســـب، غذاء الماشـــية، تليها حظيرة المواشي (زريبة) كبيرة المساحة.

الســطح مغطى بمخزون العام من القش والحطب لوقود الكانون، عليه عدد من الغرف تسـمى (مقاعد)، للإقامة في الصـيف، مسـاحة بين الغرف للجلوس صـيفًا، تنتهي بسـور؛ مزين ببيارق خشـبية، تطل منـه على أجمـل غروب، وأروع شـــروق، مرتبط في مخيلتي برائحـة تسـوية الخبز الطازج، والحطب المحترق، أصـوات الديكة والعصـافير وسط هدوء بلا زمامير سيارات، أو نداءات باعة، لا تسمع إلا السلام والترحاب، ودعوة دائمة لشرب شاي ثقيل به الكثير من السكر.

❖ ❖ ❖

هيبة الموت

هدموا دار جدي وبني عمي بكري بيتًا حديثًا من الأسمنت بدلًا منها، شديد الحرارة صيفًا، بارد جداً شتاءً، فرحوا جميعًا إلا أنا، ذبح أضــحية على بابه، هنؤوه، حزنت، بكيت، كيف يجرؤون على هدم بيت ببوابة أثرية مثل بوابته، ذهبت إليه مع أول زيارة، وقفت بالباب، خاشعة احترامًا لهيبة الموت، شعرت أن جدي مات توًا وأنا لم أرَه ولم يرَني، قرأت الفاتحة لأرواح العائلة كلها أحياءً وأمواتًا، قفلت راجعة أخفي دموعي كي لا يتندروا بها.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

عميرة الصغيرة

كانت عميرة ابنة عمي بكري (على اسم جدتنا) هي ملاكي الحارس في زياراتي لطهواي، ألتصق بها لا أتركها حيث تذهب؛ تأتي بالبهائم لتشرب من الحوض صباحًا ومساءً؛ أسبقها لتحريك ذراع الطلمبة، ثلاث أو أربع ضغطات وأشعر بالتعب، تضحك وتدير الطلمبة عشرات المرات، أقف مبهورة بما تفعل، وبعدم خوفها من الجاموسة الضخمة السوداء، أضحك لقولها: "الجاموسة طيبة".

أسير خلفها (للزريبة)، أقف على الباب لكي لا يتسخ مداسي، تقف الجاموسة ساكنة أثناء الحلب، لا تستجيب سوى لها وترفس من سواها، نادتني للدخول، رفضت، سمعت الجاموسة صوتي، التفتت إليّ، نظرت نحوي بعينين واسعتين، خفت رغم جمال عينيها، صرخت ضاحكة، تراجعت للوراء.

❖ ❖ ❖

محاولة فاشلة

ذهبت لقريتنا بعد غياب، شاهدت ابنة عمي تعجن نوعًا من أنواع الخبز في ماجور عميق، ثم ترفع العجين لأعلى وتعيده، صانعة بالونًا؛ ومن ثم تطبه لأسفل بكفها، وهكذا مرات كثيرة، أعجبت بالحركة، حسبت الأمر سهلًا، جلست مكانها لأقلدها، ضربت العجين بقبضة يدي مرة والثانية ورفعت لأعلى ولم يعد العجين للماجور بل استقر في حجري ملتصقًا بملابسي وذراعي، ضحكت وضحك الجميع، تولت عميرة تخليصي من العجين.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

صباحية عميرة

استيقظت صباح اليوم التالي لزواج عميرة، على ضجيج شديد، صياح ديكة وصراخ دجاج، ماعز يموء، أسرعت إلى الدار (النى)، مكان الخبز والخزين والطبخ، وجدت نسوة يساعدن أم العروس في تجهيز صباحية العروس، أقفاص دجاج وحمام وديك رومي؛ بط، زوج من الماعز، أقفاص برتقال ويوسفي، سباطة موز، أجولة أرز، دقيق، بطاطس، أنية لبن وزبد وقشدة وعسل أبيض وأسود، دستة من الفطير المشلتت الضخم مفرود على صواني الطعام الكبيرة، كل الحبوب من لوبيا وفاصوليا وعدس وحمص، صابون، منظفات مثل قطع صابون الأواني الأسود ومكعبات الصابون الأبيض للملابس ومسحوق سافو أو رابسو بالإضافة للكلور والبوتاس؛ لم نكن نعرف غير ذلك من منظفات، حتى التوابل والملح، ولا أتذكر البقية لأنه لم يكن هناك موضع قدم لمشاهدة باقي الصباحية التي تزف على عربات نصف نقل بالزغاريد حتى منزل العريس، وما زال معمولًا بهذا التقليد وأكثر حتى هدايا لأخوات وخالات وعمات العريس!

❖❖❖

الطلمبة الحزينة

كل من سكن وعاش بالقرى يعرف عن الطلمبة حزنها لموت صاحبها أو طيبين البيت، وهذا ما حدث بعد وفاة جدتي، ثم بعد سنوات طويلة لوفاة زوجة جدي الأخيرة، تعطلت ولم تستجب لتصليح بعدها أبدًا، رحم الله الطيبين.

كذلك النخل لا يطرح إن مات صاحبه، عاصرته في حديقة بيتنا الذي بناه أبي، على قطعة أرض اشتراها من جار لنا، واحتفظ بالنحل المزروع بها الذي لم يطرح لسنوات بعد وفاة مالكها الأصلي.

❖ ❖ ❖

عمتي غالية

هي وسطى الأخوات الثلاث شقيقات أبي وأكثرهن تأثيرًا فيّ، أحببت مجالستها لخفة ظلها ورجاحة عقلها، وحكاياها التي لا تنضب عن سير الأهل والمعارف، نوادر وتاريخ.

تتعجب لمن تلد لدى طبيب أو لمن تلد بعملية قيصرية وتقول:

- آخر زمان، معظمهن يلدن شق بطن ويبقين في فراشهن حتى اليوم الأربعين.

حكت أنها غسلت أثار الدم بعد ولادتها بنفسها، وقبل اليوم السابع ذهبت الحقل لزوجها حاملة وجبة الغداء، مصمصت شفتيها للرضع دائمي البكاء، أكملت حديثها بالتندر بقلة البركة في زماننا.

عادت من مهمة إيصال الغداء للزوج وعماله في الحقل، لم تجد رضيعها البكر في فراشه، ضجت بالصراخ أن وجدت قطعة الخبز والسكين بجوار غطائه كما تركتهم، في العادة يظل الابن نائمًا لساعتين أو ثلاث حتى تعود، اعتقدت أن الجنية الشريرة (أم الصبيان) الموكلة بخطف المواليد الذكور؛ لم تخشَ السكين ورفضت الخبز مفضلة الطفل، ذهبت به تحت الأرض، كاد يغشى عليها لولا أن رأت طفلها نائمًا فوق طست مملوء بالأرز بجوار السرير، حملته تتحسسه لتتأكد أنه طفلها الآدمي وليس جنيًا يشبهه وضعته أم

الصبيان بدلًا عنه، اطمأنت أن رأت أثر ارتطام رأسه بحافة الطست عند سقوطه من فوق السرير.

بيتها هو المكان الأفضل لي ولأبي، أمامه حديقة صغيرة مزروعة وسور من الطوب اللبن يحيطها والبيت معًا، نسهر نتسامر، يضحك أبي لنوادرها، أسعد بسماع حكاياها التاريخية الغريبة، توفيت عن عمر يناهز التسعين، هدموا بيتها وطمسوا الحديقة، شيدوا مكانهما بناية فخمة ضخمة، عالية؛ حزينة.

❖ ❖ ❖

عمتي راضية

الشــقيقة الثالثة لأبي وبيتها على أطراف القرية، أمامه مســاحة شـاسـعة خضـراء من أرض العمدة، من أعلى السـطح نرى الزراعية وســـراي الحاج عبده أخو العمدة، أحبه طيلة اليوم، يثبت زوج عمتي الحاج لبيب الوليلي أرجوحة بالســقف، نقضـــي يومنا بينها وبين مشاهدة الأرانب وتقليد صوت الديوك الرومي وملاعبتهم ثم الهرب منهم ضاحكين، واللعب مع القطط والكلب (مسيو)، وتناول ألذ طعام ومشهيات من يد عمتي.

بالقرب منها بيت عمتي ســعدية كبرى الشــقيقات وأجملهن، لم يفرح جدي لإنجابها، فرحت الأم بالابنة واختارت اســم أفراح، رفض الزوج وغضب أكثر إذ كيف تختار اسم كهذا وهو غاضب، واختار اسم سعدية؛ نسي جدي وسجلها بالاسم الذي اختارته الأم، ونسي ثانية أنه سجلها بهذا الاسم ولم يخبر زوجته، أنجبت بعدها عمتي غالية ثم الابنة الثالثة، أصــرت جدتي هذه المرة بتســميته المولودة أفراح، غضب الزوج ثانية وأمرها بإطلاق اسم راضية، ونسي ثالثًا وسجلها باسـم أفراح، ولم يكتشـف الأمر إلا حين كتابة قسـيمة زواج البنتين والأغرب أنه تمت الزيجتين بنفس الاسم.

❖ ❖ ❖

عمي عيد

أشقر، جميل الملامح، ذو عينين زرقاوين، طيب حنون، محب للمرح - عكس أبي الجاد جدا -، ذكي، ماهر بالتجارة ككل أعمامي، رغم أنه كان ناظر مدرسة، خفيف الظل، رزقه الله بزوجة حنون، كانت الأكثر تأثيرًا في فترة سوداء من حياتي، أثبتت أن الحب والمساندة لا علاقة بينها وبين صلة الدم أو العصب، وما زال الأبناء يواصلون ما كانت تفعله الأم من مساندة نفسية، وكما كانت زوجة عمي رحمة الله عليها، الآن زوجات الأبناء خاصة زوجة الابن الأكبر، وابنة عمي الوحيدة وزوجها.

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

شيخ البلد

سمة بلدتنا وأظنها في كل القرى بمصـــــر عدم قبول الجديد دون إبداء أســـباب ودون نقاش، هو رفض كل تطور أو تحديث، حتى في صغائر الأمور، كنا في الجامعة حين مر عبد الحميد ابن عمي السيد، وكان عمي بكري آنذاك قد تولى مشـــيخة البلد، ارتدي ابن عمي "چاكيت چينز" بأكمام، بينما عمي في مجلسه يصلح بين متخاصمين، ثم عاد عبد الحميد بعد قليل بنفس "الجاكيت" دون أكمام، ظهرت أكمام القميص أسـفله، قامت دنياه ورفضـت القعود لأن ابنه قل من قيمة نفســه وهو أسـتاذ اللغة العربية وابن شـيخ البلد، زادت ثورته عندما علم أن الأكمام تتصـل بالجاكيت بسـحاب (سـوسـته) يمكنه التركيـب أو الخلع للأكمـام، وأعلن عمي تبرأه من الچاكيـت ومن أفعال ابنه، وكلما جلس بمجلس لا بد أن يذكر الواقعة وشـــجبه لها، ولما سألته (عليه رحمة الله) وما قلة القيمة في الأمر نظر إليّ بغضب شـــديد وخبط كفيه في بعضـــهما (أن لا حول ولا قوة إلا بالله) وأبي يكتم ضحكاته ولولا أني ابنة أخيه الحبيب لنالني غضبه وتبرأ مني مثل ما نال عبد الحميد.

عمي بكري تاجر هو الآخر، يبيع ويشتري الأرز والمواشي، بالإضافة لمتابعة زراعة قطعة أرض، هو الأقرب لقلب أبي، طيب القلب يتفانى

لإســـعاد أبي وقت إجازاتنا، طلبات أبي وعمي عيد هي أوامر لقلبه، دون سلطة إلا الحب لأخويه.

كان عمي وعائلته خصوصًا عميرة وعبد الحميد الأكثر تأثيرًا في وقت طفولتي والمراهقة.

لكنه ثار وغضب حين رفضت كوب حليب ساخنٍ تحتل القشدة نصفه، وكيف لا أشربه وهو وارد حظيرة البيت، حاولت لكن رائحته القوية والدسم الطافي على وجهه منعاني من شربه وطلبت (لبن مبستر) معبأ في زجاجة اعتدته في مراهقتي، علا صوته غاضبًا:

- أنشرب لبن على الموضة ولا (إيه)؟!

❖ ❖ ❖

إيمان الوكيل

عمي عبد العظيم

تنوعت ألوان العيون في عائلتي من اللون العسلي إلى الأخضر الفاتح والغامق، والأزرق بدرجاته، و(الموف)، وهناك من بلون مختلف لعين عن الأخرى.

إلا عمي عبد العظيم كان لون عينيه باللون اللبني الفاتح؛ بدرجة لم أشاهدها إلا في عيونه رحمة الله عليه، لم يرث أحد من أولاده لون عيني عمي الطيب.

أتذكر عائلتي وأفعالهم وحكاياتهم عن زمن لم أعِشه، أفتقد الأماكن، يغلبني الحنين للأشياء، يراودني الشوق لضحكات الطفولة، ذكريات قريتي كنهر رائق دائم التدفق، نسمة باردة في يوم حار، بسمة وقت الضيق كابتسامة عمي بكري وأولاده، أو راحة كما وجدتها من خدمة زوجته وأولاده في بيتهم، حضن حنون وقت الحزن كحضن زوجة عمي عيد.

"وحشتوني ووحشتني أيامكم".

❖❖❖❖❖❖

يا حروف العالم
اتجمعوا
واكتبوا اسم الحبايب
اللي اتفرقوا
واحكوا عني حكاويهم
علموها لبنيكم
وصوهم يحكوا لأولادهم
حلو ومحزن على السواء
فيها العبرة والضحكات
احكوا على زمن فات
اللي راح واللي مات
اتغيرت الصفات
احكوا عن الجدات
تقاليدهم والعادات
شوار العروسة
زفة العريس
احكوا عن حب بقى عزيز
يا آلة الزمان أنسيني
ابقى هناك ما ترجعيني
قولي للساعة تقف ما تدق

أصحى على ريحة الحطب في الفرن
والعيش الفلاحي السخن
اللمة جنب الراكية
والكلام ع القطن
الري والنيل بيصب
العمة تنادي وتقول
ست الحلوين تطل
أضحك واترمي في الحضن
كان على ضيقه وضمته
وسع الدنيا.. كالأم
ياه يا ذكريات
عن اللي راح واللي فات
جيتي ليه بالعبرات
دي الدنيا مش ناقصة
دمعات..

"تمت"

٢٠٢١/ ٣/١٧

*****